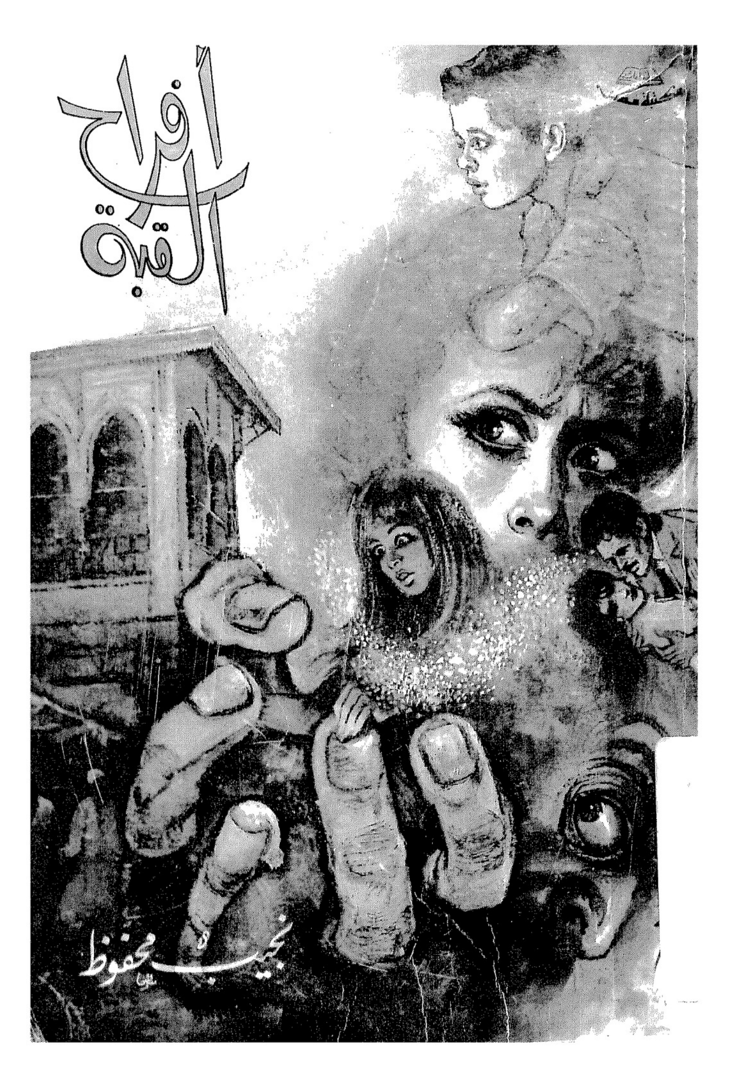

أفراح القبة
نجيب محفوظ

افراح القبة

مطبوعات مكتبة مصر

افراح القبة

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر : مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

طارق رمضان

سبتمبر ، مطلع الخريف ، شهر التأهب والتدريب . صوت سالم العجرودى المخرج يتدفق . يتدفق فى حجرة المدير المغلقة النوافذ المسدلة الستائر . لا صوت يتطفل عليه إلا أزيز خفيف يند عن جهاز التكييف . صوته يمرق فى إطار صمتنا اليقظ قاذفا بالصور والكلمات . نبراته ترق وتخشوشن ، تتلون بشتى الأصباغ ، محاكية أصوات الرجال والنساء . قبل ترديد أى حوار يرمق صاحب الدور أو صاحبته بنظرة تنبيه ثم يسترسل . وتنبثق الصور من واقع ثقيل صلب يجتاحنا بصراحة مرعبة . يجتاحنا بتحد مخيف . سرحان الهلالى المدير يجلس على رأس المائدة المستطيلة المكللة بالقطيفة الخضراء . يجلس كحارس صارم . يتابع التلاوة بوجه جامد هادئ قابضا على سيجار الدينو بشفتين ممتلئتين . يحدق بوجهه الصقرى فى وجوهنا المشرئبة نحو المخرج . يصادر بجديته البالغة أى مقاطعة أو تعليق . يتجاهل انفعالاتنا المتوقعة ويدعونا بصمته البارد إلى تجاهلها أيضا . ألم يدرك الرجل معنى ما يلقى علينا ؟ . الصور تتماوج أمام مخيلتى مخضبة بالدماء والوحشية . أريد أن أتنفس بكلمة أتبادلها مع أحد . سحابة الدخان المنعقدة فى الحجرة تزيد من غربتى ..

أغوص فى الرعب . وأحيانا ألتصق بنظرة بلهاء بالمكتب الفخم وراءنا أو بصورة من الصور المعلقة . صورة درية وهى تنتحر بالأفعى . صورة إسماعيل وهو يخطب فوق جثة قيصر . ها هى المشنقة تتخايل لعينى . ها هى الشياطين تتبادل الأنخاب .

وعندما نطق سالم العجرودى بجملة « يسدل الستـــار » اتجهت الرءوس نحو سرحان الهلالى مترعة بالذهول .

يقول المدير :

ـــ يسرنى أن أستمع إلى الآراء .

وتقول درية نجمة المسرح باسمة :

ـــ فهمت الآن لِم لَم يحضر المؤلف جلسة القراءة ..

وأقول أنا ، وأنا أحلم بتدمير العالم :

ـــ المؤلف ؟! .. ما هو إلا مجرم علينا تسليمه إلى النيابة ..

يرد على الهلالى بنبرة آمرة :

ـــ الزم حدك يا طارق ، انس كل شىء إلا أنك ممثل ..

ـــ ولكن ..

يقاطعنى بغضبه الجاهز دائما :

ـــ ولا كلمة !

ووجه عينيه نحو المخرج فقال المخرج :

ـــ المسرحية مرعبة ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ ترى كيف يكون وقعها فى الجمهور ؟

ـــ لقد وافقت عليها وأنا مطمئن .

ـــ لكن جرعة الرعب جاوزت الحد .

وقال إسماعيل نجم الفرقة :

ـــ دورى بشع !

فقال الهلالى :

ـــ لا يوجد من هو أقسى من المثاليين ، هم المسئولون عن المذابح العالمية ، دورك تراچيدى من الطبقة الأولى ..

فقال سالم العجرودى :

ـــ قتل الطفل سيفقده أى عطف ..

ـــ دعنا الآن من التفاصيل ، ممكن حذف دور الطفل ، لقد نجح عباس يونس فى إقناعى أخيرا بقبول مسرحية له ، وشعورى يلهمنى بأنها ستكون من أقوى المسرحيات التى قدمناها فى عمر مسرحنا الطويل ..

فقال فؤاد شلبى الناقد :

ـــ إنى أشاركك شعورك ولكن يجب حذف دور الطفل .

فقال الهلالى :

ـــ يسرنى أن أسمع منك ذلك يا فؤاد ، إنها مسرحية متقنة وصادقة

ومثيرة ..

فقلت بحدة :

ـــ ما هى بمسرحية . إنها اعتراف ، هى الحقيقة ، نحن أشخاصها الحقيقيون ..

فقال الهلالى بازدراء :

ـــ ليكن ، أتحسب أن ذلك فاتنى ؟ .. لقد رأيتك كما رأيت نفسى ، ولكن من أين للجمهور أن يعرف ذلك ؟

ـــ ستتسرب الأخبار بطريقة أو بأخرى ..

ـــ ليكن ، الضرر الأكبر سيحيق بالمؤلف نفسه ، بالنسبة لنا سنضمن مزيدا من النجاح ، أليس كذلك يا فؤاد ؟

ـــ أعتقد ذلك !

فابتسم الهلالى لأول مرة وقال له :

ـــ يجب أن يتم كل شىء فى لباقة وكياسة .

ـــ طبعا .. طبعا ..

فرجع سالم العجرودى يتمتم :

ـــ الجمهور !.. ترى كيف يستقبلها ؟

فقال الهلالى :

ـــ هذه مسئوليتى أنا .

ـــ عظيم .. سنبدأ العمل فورا ..

الجلسة تنفض . ألبث أنا وحدى مع المدير . لى دالة عليه بحكم الزمالة والصداقة والجيرة القديمة . قلت له وأنا فى غاية الانفعال :

— علينا أن نعرض الموضوع على النيابة .

فقال متجاهلا انفعالى :

— ها هى فرصة لتمثل فى المسرحية ما سبق أن عشته فى الحياة .

— إنه مجرم لا مؤلف .

— وهى فرصة ستخلق منك ممثلا مهما بعد عمر طويل مضى وأنت ممثل ثانوى .

— إنها اعترافات ، كيف نترك المجرم يفلت من يد العدالة ؟

— إنها مسرحية مثيرة واعدة بالنجاح وذاك أقصى ما يهمنى يا طارق .

فاض قلبى بالغضب والمرارة . انتشرت أحزان الماضى كالدخان بكافة هزائمه وآلامه ..

إنها فرصتى للتنكيل بعدوى القديم .

* * *

— من أدراك بهذه الأسرار !

— عفوا .. سنتزوج !

* * *

ويتساءل سرحان الهلالى :

ـــ ماذا أنت فاعل ؟

ـــ يهمنى فى الاعتبار الأول أن ينال المجرم جزاءه .

فقال بضيق :

ـــ اجعل الاعتبار الأول لإتقان الدور .

فقلت بتسليم :

ـــ لن يفوتنى ذلك .

* * *

يقتحمنى انفعال قهار عند رؤية النعش فأجهش فى البكاء مغلوبا على أمرى . كأنه أول نعش أراه . الدموع فى عينى مثلى مثيرة للدهشة . ألمح السخريات من خلال الدمع مثل ثعابين الماء . ليس هو الحزن أو العظة ولكنه جنون عابر . أتجنب النظر إلى المشيعين خشية أن ينقلب البكاء إلى هستيريا من الضحك .

* * *

أى كآبة تغشانى وأنا أخترق باب الشعرية . منذ سنوات لم تقترب منه قدماى . حى التقوى والخلاعة . أغوص فى زحام وضوضاء وغبار النساء والرجال والصبية . تحت سقف الخريف الأبيض . كل شىء يلوح لعينى فى ثوب الازدراء والكآبة . حتى الذكريات منفرة جارحة بما فيها مجيئى بتحية لأول مرة وهى تتأبط ذراعى فى مرح . مثل الهوان فى الظل ومعاشرة الصعاليك والقبوع الحقير تحت جناح أم هانى . اللعنة على

الماضى والحاضر . اللعنة على المسرح والأدوار الثانوية . اللعنة على أول نجاح تأمله من لعب فى مسرحية عدو مجرم وأنت تعلو الخمسين من العمر . ها هو سوق الزلط النحيل الطويل مثل ثعبان . ها هى بواباته المتجهمة العتيقة وها هما عمارتاه الجديدتان الوحيدتان . والبيت القديم رابض مكانه بما يطويه فى صدره من تاريخ أسود وأحمر . لقد استجد جديد لم يكن فتحولت المنظرة الخارجية إلى مقلى يجلس فيها للبيع كرم يونس وإلى جانبه حليمة زوجته . شد ما غيرهما السجن . وجهان هما صورتان مجسدتان للامتعاض . ينغمسان فى الكدر على حين يأخذ نجم ابنهما فى اللمعان . لمحنى الرجل . نظرت المرأة نحوى أيضا . لا حب ولا ترحيب هذا ما أسلم به . رفعت يدى بالتحية فتجاهلها الرجل وقال بجفاء :

ــ طارق رمضان ! .. ماذا جاء بك ؟

لم أتوقع استقبالا أفضل . اعتدت ألا أبالى . وقفت المرأة منفعلة ثم سرعان ما جلست على كرسيها المجدول من القش وهى تقول بمرارة ساخرة :

ــ أول زيارة مذ رجعنا إلى سطح الأرض .

ما زالت قسمات وجهها تتشبث بذكريات جمالها . الرجل يقظ مفيق رغم أنفه . من هذين ولد المؤلف المجرم .

قلت كالمعتذر :

ـــ الدنيا شبكة من الهموم وما أنا إلا غريق من الغرقى ...

فقال كرم يونس :

ـــ جئت من الماضى كذكرى من أسوأ ذكرياته ..

ـــ لست أسوأ من غيرى ..

لم يدعنى أحد للجلوس فى المقلى فلبثت واقفا فى موقف الزبائن ، وشجعنى ذلك على التمادى فيما جئت من أجله . وتساءل كرم فى جفاء :

ـــ هه ؟

فقلت بتحد :

ـــ معى أخبار سيئة ..

فقالت حليمة :

ـــ لم نعد نحزن للأخبار السيئة ..

ـــ حتى لو تكن عن الأستاذ عباس يونس ؟

فقلقت نظرتها فى حدة وهتفت :

ـــ لن تزال عدوه حتى الموت !

وقال كرم :

ـــ إنه ابن بار ، هو الذى أنشأ لنا هذه المقلى بعد أن رفضت العودة إلى عملى القديم بالمسرح ..

وقالت حليمة بفخار :

ـــ وقد قبلت مسرحيته !

ـــ قرئت علينا أمس ..

ـــ رائعة ولاشك !

ـــ مرعبة .. ماذا تعرفان عنها ؟

ـــ لا شيء .

ـــ ما كان بوسعه أن يخبركما ..

ـــ لماذا ؟

ـــ إنها باختصار تدور فى بيتكم هذا ، مكررة ما وقع فيه بالحرف الواحد ، كاشفة فى الوقت نفسه عن جرائم خفية تفسر الوقائع تفسيرا جديدا ..

تساءل كرم بجدية لأول مرة :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ سترى نفسك كما سنرى أنفسنا ، كل شيء .. كل شيء ، ألا تريد أن تفهم ؟

ـــ حتى السجن ؟

ـــ حتى السجن ، وموت تحية ، ولكنها تدلنا على من وشى بنا إلى الشرطة ، كما تثبت لنا أن تحية قتلت و لم تمت !

ـــ ما هذا السخف ؟!

ـــ إنه عباس أو من حل محله فى المسرحية من يفعل ذلك ..

تساءلت حليمة بحدة :

ــ ماذا تعنى يا عدو عباس ؟

ــ إنى أحد ضحاياه ، أنتما ضحيتان أيضا ..

فتساءل كرم :

ــ أليست مسرحية ؟

ــ إنها لا تدع مجالا للشك فيمن وشى بكما ولا فيمن قتل ..

ــ كلام فارغ ..

وقالت حليمة :

ــ عنده تفسير ولا شك ..

ــ اسألاه .. شاهدا المسرحية عند عرضها ..

ــ مجنون .. لقد أعماك الحقد ..

ــ بل الجريمة ..

ــ ما أنت إلا مجرم ، وما هى إلا مسرحية ..

ــ إنها الحقيقة ..

ــ حاقد مجنون .. ابنى عبيط ولكنه ليس خائنا ولا قاتلا ..

ــ هو خائن وقاتل وليس عبيطا ..

ــ هذا ما تتمناه .

ــ يجب تسليم قاتل تحية إلى العدالة ..

ــ إنه الحقد القديم .. هل أكرمت تحية حينما كانت بيدك ؟

ـــ كنت أحبها وكفى .

ـــ حب البرمجية ..

صحت بغضب :

ـــ إنى خير من زوجك وخير من ابنك ..

فسألنى كرم بجفاء ومقت :

ـــ ماذا تريد ؟

فقلت ساخرا :

ـــ أريد لبا بقرش .

فهتف بى :

ـــ رح فى داهية ..

* * *

رجعت أخوض فى أمواج الأطفال والنساء . توكد لدى أن عباس لم يشر إلى موضوع مسرحيته لوالديه مما يشهد على تجريمه . لكن لم يفشى سرا خطيرا لم يشك فيه أحد ؟ . أهى اللهفة على النجاح بأى ثمن ؟ . أيلقى جزاءه شهرة بدلا من المشنقة ؟ .

* * *

ـــ طارق .. ماذا أقول؟ ... القسمة والنصيب !

* * *

عند ناصية شارع الجيش التفت صوب العمارة ثم ملت نحو العتبة .

بمرور الأعوام الشارع يضيق ويجن ويصاب بالجدرى . نلت جزاءك يا تحية . من الإنصاف أن يقتلك من هجرتنى من أجله . سيستفحل الزحام حتى يأكل الناس بعضهم بعضا . لولا أم هانى لتشردت فى الطرقات . المشنقة . هى قمة المجد يا عباس . لا ميزة لك إلا الفحولة . هزيمتها لا تنسى . ما معنى أن تعيش ممثلا من الدرجة الثالثة ؟ . فى الأيام الحلوة نما الحب وراء الكواليس . فقهت الغريزة الحية لغة الفحولة الخفية . نلت أول قبلة والموت يزحف على راسبوتين .

— تحية ... إنك تستحقين أن تكونى نجمة لا ممثلة ثانوية كحالى ..

— حقا ؟! ... إنك تبالغ يا أستاذ طارق ..

— بل شهادة خبير ..

— أم عين الرضا ؟

— حتى الحب لا يؤثر فى حكمى !

— الحب ؟!

كنا نسير فى شارع جلال فى النصف الثانى من الليل . سهونا عن قشعريرة البرد وثملنا بدفء الحلم .

قلت :

— طبعا .. أتريدين هذا التاكسى ؟

— آن لى أن أرجع إلى بيتى ..

— وحدك ؟

ـــ لا أحد معى فى شقتى الصغيرة .

ـــ أين تقيمين ؟

ـــ شارع الجيش .

ـــ نحن جيران تقريبا ، إنى أقيم فى حجرة بيت كرم يونس فى باب الشعرية ..

ـــ ملقن الفرقة ؟

ـــ نعم .. هل تدعيننى إلى شقتك أو أدعوك إلى حجرتى .

ـــ وكرم وحليمة ؟

ضحكت فابتسمت . تساءلت :

ـــ لا أحد فى البيت سواكم ؟

ـــ ابنها الوحيد ، تلميذ .

جميلة وصاحبة شقة ومرتب مثل مرتبى .

* * *

لم يستدعينى سرحان الهلالى ونحن منهمكون فى التدريب ؟

يقف مستندا إلى مائدة الاجتماعات فى تيار الشمس الدافئ يبتدرنى :

ـــ اعتذرت مرتين عن التدريب يا طارق .. ؟

لم أجد ما أقوله فواصل بضيق :

ـــ لا تخلط بين الصداقة والعمل .. ألم يكفك أنك حملت عباس على الاختفاء ؟

ــ لعله هرب بعد افتضاح أمره .

ــ ما زالت مصرا على أفكارك الغربية ؟

ــ إنه مجرم ما من شك فى ذلك ..

ــ إنها مسرحية ، وإنك ممثل لا وكيل نيابة ..

ــ ولكنه مجرم وأنت تؤمن بذلك ..

ــ الحقد يعمى بصيرتك .

ــ لست حقودا .

ــ لم تشف من خيبة الحب بعد ..

ــ إننا نتدرب لنهيىء النجاح للمجرم .

ــ إنه نجاحنا نحن ، وهى فرصتك للضوء بعد عمر طويل فى الظل ..

ــ أستاذ سرحان .. الحياة ..

ــ لا تحدثنى عن الحياة .. لا تتفلسف .. إنى أسمع ذلك كل ليلة فى المسرح حتى مللته .. إنك تهمل صحتك .. الجنس والمخدرات وسوء التغذية .. ولا تتورع عن تمثيل دور الإمام فى مسرحية الشهيدة وأنت سكران !

ــ أنت الوحيد الذى عرف ذلك ..

ــ أكثر من ممثل شم رائحة فمك .. هل تضطرنى إلى ..

قاطعته بجزع :

ـــ لا تعرض صداقة العمر للهوان ..

ـــ ولحنت فى آية وهو شيء لا يغتفر .

ـــ مر كل شيء بسلام .

ـــ أرجوك .. أرجوك .. انس هوس التحقيق الخرافى واحفظ دورك جيدا .. إنه فرصة العمر ..

وأنا أغادر الحجرة قال لى :

ـــ عامل أم هانى معاملة أفضل .. ستعانى كثيرا إذا هجرتك ..

اللعنة .. تماثلنى فى السن ولا تعرف الشكر . شهدت موت تحية دون أن تدرى أنها قتلت . سأمثل كل ليلة دور العاشق المهجور .. سأبكى مرارا وتكرارا أمام النعش .. ماتت دون أن تندم .. لم تتذكرنى .. لم تعرف أنها قتلت .. قتلها المثالى .. إنه ينتحر فى المسرحية ولكن يجب أن يشنق فى الحياة .. ها هى جريمة تخلق مؤلفا وممثلا فى آن ..

* * *

ـــ ألم تحضر تحية ؟

ـــ كلا .

ـــ لم أقابلها فى المسرح .

ـــ لن تذهب إلى المسرح .

ـــ ماذا تعنى يا عباس ؟

ـــ أستاذ طارق .. أرجوك .. لن تحضر تحية إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح ..

ـــ من أدراك بهذه الأسرار كلها ؟

ـــ عفوا .. سنتزوج ..

ـــ هه ؟!

ـــ اتفقنا على الزواج .

ـــ يا بن .. أنت مجنون ؟ .. ماذا تقول ؟

ـــ حلمك .. نريد أن نكون شرفاء معك .. دعنى ..

لطمته . تنمر بغتة بوجه يموج بالعدوان ولكمنى . شاب قوى رغم السحابة على عينه اليسرى . دار رأسى . جاء كرم يونس وجاءت حليمة . تساءلا :

ـــ ماذا حدث ؟

صرخت :

ـــ شيء مضحك .. رواية هزلية .. المحروس سيتزوج من تحية ..

تساءل كرم ببرود مدمن ذاهل دائما :

ـــ حقا ؟!

وهتفت حليمة مخاطبة ابنها :

ـــ تحية ؟! ... أى جنون .. إنها أكبر منك بعشرة أعوام ..

لم ينبس ، صحت أنا :

ــ لعب أطفال .. سأمنع هذا بالقوة ..

فصاحت حليمة :

ــ لا تزد الأمور سوءا ..

فصرخت بجنون :

ــ سأهدم البيت على من فيه ..

فقالت لى ببرود :

ــ خذ ملابسك ومع السلامة ..

فغادرت المكان وأنا أقول بتحد :

ــ باق على أنفاسكم حتى النهاية ..

* * *

ذبيح الكرامة ، مهين الفحولة ، مضغوط القلب ، مهجور الأمل يشتعل قلبه من جديد بعد أن ظن أن الروتين قد أخمده . كنت أتوهم أن تحية ملكى مثل الحذاء المطيع ، كنت أنهرها وأهينها وأضربها ، كنت أتصور ألا حياة لها بدونى وأنها تفرط فى حياتها قبل أن تفرط فى ، فلما تلاشت بحركة مباغتة ماكرة قاسية تلاشى معها الأمن والثقة والسيادة وحل الجنون . وبزغ الحب من ركن مظلم غائص فى الأعماق ينفض عن ذاته سبات البيات الشتوى ليبحث عن غذائه المفتقد . لاحت خلف شراعة الباب تلبية لنداء الجرس . عكست عيناها نظرة ارتباك مثل نطق بلعثم ولكنها لم تتراجع متحدية أزمة مصيرها . تفرست فى الصورة

الجديدة المتحررة من الإذعان الأبدى ، المتطلعة إلى الجديد وهى تنزلق فوق الحد الفاصل الذى يستثير كوامن الجريمة .

ـــ افتحى الباب يا تحية .

ـــ أنت تعرف الآن كل شيء .

ـــ هل تتركيننى فى الخارج كالغريب ؟

ـــ طارق ، ماذا أقول ؟ ، لعله خير لكلينا ، وهو النصيب والقسمة ..

ـــ إنه عبث وجنون .

ـــ كان علىّ أن أخبرك بنفسى ..

ـــ ولكنى لا أصدق .. افتحى ..

ـــ كلا .. إنى أعاملك بشرف ..

ـــ ما أنت إلا عاهرة !

ـــ حسن .. دعنى فى سلام ..

ـــ لن يحدث ذلك أبدا ..

ـــ سوف نتزوج فى الحال ..

ـــ تلميذ .. مجنون .. نصف أعمى ..

ـــ سأجرب حظى ..

ـــ افتحى الباب يا مجنونة .

ـــ كلا .. لقد انتهى كل شيء ..

ـــ مستحيل ..

ـــ ذاك ما حدث .

ـــ لن تعرفى الحب إلا بين يدى ..

ـــ لا يمكن أن تمضى الحياة على ذاك النحو .

ـــ لم تبلغى بعد سن اليأس فلم ترتكبين الحماقات ؟

ـــ لنفترق بسلام .. أرجوك ..

ـــ إنها نوبة يأس خادعة ..

ـــ كلا .

ـــ إنى خبير بالأطوار الشاذة التى يتعرض لها أمثالك .

ـــ سامحك الله ..

ـــ يا مجنونة .. متى تغيرت ؟

ـــ لم أرتكب فى حقك أى خطأ ..

ـــ عشت الكذب فترة ما ..

ـــ لا تتماد فيما لا فائدة منه .

ـــ إنك أول عاهرة ..

ولكنها أغلقت الشراعة .

* * *

بقيت فى بيت كرم يونس . عباس يونس ذهب . حل محل أبيه فى وظيفة الملقن بعد أن استغننى الأب عنها اكتفاء بمايدره عليه بيته من

أرباح وفيرة . توتر الجو فى بادئ الأمر فتدخل سرحان الهلالى وهمس فى أذنى :

ــ لا تفسد علينا سهرتنا .. اعقل .. بإشارة تسترد أم هانى .. دخلها ضعف دخل تحية ..

الهلالى مجنون نساء ولكنه لا يعرف الحب . عاشر تحية مرة أو مرتين . لا يعترف بما يسمع عن الحب وآلامه .. وهو يأمر وينهى فى الحب كأنه أحد الشئون الإدارية ويطالب بالتنفيذ فى الحال . لا أشك فى نواياه الطيبة نحوى ، وكم هيأ لى من فرص فوق خشبة المسرح ضاعت كلها بسبب قصور موهبتى ، ولكنه يؤمن بنجاحى فى مسرحية عباس . وقد بشر أم هانى . خياطة الفرقة ــ برجوعى إليها فرجعت إليها فرارا من الوحدة وتدعيما لحالى المالية المتوعكة ، وقبل أن أبرأ من التجربة المريرة . لم أتوقع لزواج تحية أى استمرار أو نجاح . كانت دائما كثيرة العلاقات تستكمل أجرها الصغير . لم تحب أحدا سواى رغم فقرى . وقد كذبت توقعاتى فحافظت على الزوجية حتى وفاتها . غير أن المسرحية هتكت ما خفى من سرها . فى المسرحية تعترف ــ وهى على فراش المرض ــ بأنها باعت نفسها لضيف أجنبى ، وعند ذاك يقرر زوجها ــ فى المسرحية ــ قتلها وذلك بأن استبدل بالدواء حبوب أسبرين لا جدوى منها . إذن قد صدقت توقعاتى وأنا لا أدرى ، وقتلها الذى أزعجنا بمثاليته ، الذى أرجو ألا يفلت من العقاب .

* * *

ــ أى مغامرة !

أجد نفسى وجها لوجه مع عباس فى شقته التى كانت ذات يوم شقة لتحية . اندفع إليها فى ذات اليوم الذى قابلت فيه والديه بالمقلى . إنه الآن مؤلف ، ووحيد فى الشقة . أخيرا أصبح مؤلفا بعد رفض العشرات من المسرحيات . مؤلف زائف يسرق الحقيقة بلا حياء . دهش لحضورى . لا تدهش . ما مضى قد انقضى ولكن آثاره تطرح نفسها من جديد . وقد صالح بيننا الهلالى ذات يوم فتصافحنا وما فى القلب فى القلب . جلسنا فى مكتبه ــ الشقة مكونة من حجرتين ومدخل ــ نتبادل النظر فى وجوم حتى قلت :

ــ أنت ولا شك تتساءل عما جاء بى ..

ــ لعله خير .

ــ جئت لأهنئك على المسرحية .

فقال بفتور :

ــ شكرا .

ــ سيبدأ التدريب غدا ..

ــ المدير متحمس لها ..

ــ بخلاف المخرج .

ــ ماذا قال ؟

ــ إن البطل قذر جدا وبغيض جدا ولن يتعاطف الجمهور معه .

فهز منكبيه استهانة وإن تجهم وجهه . سألته :

ــ تشهد جلسة القراءة ؟

فقال ببرود :

ــ هذا شأنى ..

ــ ألم تقدر أن حوادث المسرحية ستصب عليك مطرا من الظنون ؟

ــ لا يهمنى ذلك .

ــ سيتصورون ولهم الحق أنك قاتل وخائن لوالديك ..

ــ سخف لا يهمنى ..

فانفرط زمامى وقلت بانفعال :

ــ يا لك من قاتل محترف !

فرمقنى بازدراء وتمتم :

ــ ستظل حقيرا دائما وأبدا .

ــ أتستطيع أن تدافع عن نفسك ؟

ــ لست متهما كى أطالب بذلك ..

ــ سيوجه لك الاتهام أقرب مما تظن .

ــ إنك أحمق ..

قمت وأنا أقول :

ــ إنها على أى حال تستحق القتل ..

وذهبت متمتما :

ـــ ولكنك تستحق الشنق أيضا !

* * *

وجدتنى فى رحاب غضبة هلالية . عندما يغضب سرحان الهلالى ينقلب زوبعة . لمعت أنيابه . لمحت الوهج فى عينيه اللوزيتين الجاحظتين . صاح :

ـــ أنت أنت ، كما كنت وأنت ابن عشرة ، أحمق ، لولا حماقتك لاستويت ممثلا مرموقا ، تأبى إلا أن تتقمص وكيل نيابة ، لم زرت عباس يونس أمس ؟

هل شكانى إليه الوغد ؟ . آثرت الصمت حتى تخف العاصفة . صاح :

ـــ لن تتقن دورك حتى تتفرغ له ..

تمتمت بهدوء :

ـــ بدأنا اليوم ..

ثم بهدوء أعمق :

ـــ مهم أيضا أن ينال المذنب جزاءه .

فصاح متهكما :

ـــ ما من أحد منا إلا وفى عنقه دين من الذنوب يستحق عليها السجن ..

ـــ لكننا لم نقتل بعد .

ـــ من يدرى ؟ .. تحية ـــ إن صح أنها قتلت ـــ فقد اشترك فى قتلها أكثر من رجل على رأسهم أنت ..

ـــ إنه لا يستحق دفاعك عنه .

ـــ إنى لا أعتبره متهما ، هل لديك دليل واحد ضده ؟

ـــ المسرحية .

فضحك ساخرا وقال :

ـــ ما من مسرحية تخلو من اتهام ولكن النيابة تطالب بأدلة من نوع آخر ..

ـــ لقد انتحر فى المسرحية ..

ـــ هذا يعنى أنه لن ينتحر فى الحياة ، وإنه لمن حسن الحظ لنا أن يبقى ويكتب ..

ـــ إنه لم يؤلف سطرا ولن يؤلف سطرا وأنت أدرى بما قدم لك من مسرحيات سابقة ..

ـــ يا طارق رمضان ، لا تكن مملا ، انتبه لعملك ، وانتهز فرصتك فإنها لن تتكرر ..

* * *

أتدرب على دورى فى مسرحية القاتل . أستعيد حياتى مع تحية بدءا من وراء الكواليس .

أنضم إلى البيت القديم بسوق الزلط . الحب فى الحجرة . اكتشاف

الخيانة . البكاء فى الجنازة .

ويقول لى سالم العجرودى :

ــ إنك تمثل كما لم تمثل من قبل ولكن احفظ النص جيدا ..

ــ إنى أكرر ما قيل بالفعل .

فضحك قائلا :

ــ انس الحياة وعش فى المسرحية ..

عند ذلك قلت له :

ــ من حسن الحظ أن من حقك التغيير ..

ــ لقد غيرت ما اقتضت الضرورة تغييره فحذفت مشهد الطفل .

ــ عندى فكرة .

فرمقنى بضجر ولكنى قلت :

ــ البطلة وهى تحتضر تطلب رؤية عشيقها القديم ..

ــ أى عشيق ؟ .. ما من ممثل فى المسرح إلا عشقها حينا ..

ــ أعنى العشيق الذى أمثل دوره .. ويذهب إليها فتعتذر إليه عن خيانتها وتموت بين يديه ..

ــ إنه يقتضى إدخال تغييرات جوهرية على الشخصية وعلى العلاقة بين الزوجين .

ــ ليكن .

ــ إنك تقترح مسرحية جديدة .. البطلة نسيت تماما عشيقها

القديم ..

ــ غير ممكن وغير طبيعى ..

ــ قلت لك عش فى المسرحية وانس الحياة ، أو تفضل بتأليف مسرحية جديدة فنحن فى زمن مؤلفى النزوة والصدفة ..

ــ ولكنك حذفت الطفل ودوره ؟

ــ ذاك شىء آخر ، إنه غير ملتحم بالأحداث ، وقتل وليد برىء خليق بأن يفقد البطل أى عطف .

ــ وقتل زوجة تعيسة ؟

ــ اسمع ، مئات من المتفرجين يودون فى أعماقهم قتل زوجاتهم ..

* * *

أليس هذا هو كرم يونس ؟ . بلى . إنه يغادر حجرة المدير . لم يكن بقى على عرض المسرحية إلا أسبوعان . وكنت واقفا أمام مدخل البوفيه أحاور درية نجمة الفرقة وبيد كل منا فنجان قهوة . قلت له وهو يقترب منا فى بدلة قديمة ورقبة البلوفر الأسود تطوق عنقه حتى أسفل الصدغين :

ــ شرفت المسرح ..

فرمقنى شزرا وقال بجفاء :

ــ ابعد عن وجهى ..

وحيا درية تحية عابرة ومضى . قطعت درية حديثها عن الغلاء

وقالت :

ـــ جاء ولا شك يسأل عن سر اختفاء عباس ..

فقلت بحنق :

ـــ ما هو إلا اختفاء مجرم ..

فقالت درية باسمة :

ـــ لم يقتل و لم ينتحر .

ـــ لن ينتحر ولكنه سيشنق ..

رجعت تقول :

ـــ كان يجب أن يقودنا النصر إلى حياة أيسر .

فقلت بسخرية :

ـــ لا يحيا حياة يسيرة إلا المنحرفون ، لقد بات البلد ماخورا كبيرا ، لم كبست الشرطة بيت كرم يونس وهو يمارس الحياة كما تمارسها الدولة ؟!

فقالت درية ضاحكة :

ـــ نحن فى زمن القومية الجنسية !

ـــ إنى رجل منبوذ من أسرتى العريقة لانحرافى فلم تحدق بى الخيبة ؟

ـــ أيها الخائب الأبدى الذى لم يجد إلا أم هانى حقلا لاستغلاله !

* * *

ليلة الافتتاح ١٠ أكتوبر . الليل فى الخارج يزفر نسمة لطيفة أما فى

الداخل فثمة نذير بجو حار . بين المشاهدين كرم وحليمة ، الهلالى ، فؤاد شلبى ، أنا الوحيد الذى يكرر دوره الذى لعبه فى الحياة فوق الخشبة . إسماعيل يلعب دور عباس . حياة البيت القديم تعرض من جديد بكل قحتها وتلحق بها جرائم جديدة أكثر وحشية . المدير يقامر ويتسلل إلى حجرة نوم حليمة . الفضائح تتعانق وتتوج بالخيانة والقتل . لأول مرة فى حياتى تختم مواقفى بالتصفيق . النجاح خمر . هل تشاهدنا تحية من وراء القبر ؟. النجاح خمر . الجمهور غارق فى الصمت أو منفجر فى التصفيق . المؤلف المجرم الجبان غائب . أى رد فعل انداح فى جوارح كرم وحليمة ؟ . ستغطيها التجاعيد قبل الهبوط الأخير للستار .

يجمعنا البوفيه للاحتفال التقليدى . لأول مرة فى حياتى تحس الأبصار بوجودى . إنى شخص جديد تماما . تحية تخلق من العدم أكثر من رجل . ارتسمت على فم أم هانى ابتسامة واسعة تتسع لتسلل بولدج . وراء كل عظيم امرأة . قال لى سرحان الهلالى :

ـــ ألم أقل لك ؟

وقال فؤاد شلبى :

ـــ مولد ممثل كبير ..

. إسماعيل نفسه تجلت فى ابتسامته المتكلفة الغيرة . مثلت العشق والبرجة والجنون .. ملأت بطنى بالشويرمة والكونياك . تحالف

الكونياك مع خمر النجاح . حتى نخب المؤلف شربته . رأيت حليمة فى التايير الذى استأجرته من أم هانى .

غادرت المسرح حوالى الثالثة صباحا . أم هانى تتأبط ذراعى وأنا أتأبط ذراع فؤاد شلبى . قال :

ـــ هلم نتمش فى القاهرة فى الوقت الوحيد الذى يتاح لها فيه الوقار .

قالت أم هانى :

ـــ بيتنا بعيد .

ـــ معى سيارتى .. تلزمنى بعض المعلومات ..

سألته :

ـــ ستكتب عنى ؟

ـــ طبعا ..

ضحكت عاليا . رحت استجابة له أتحدث عن الماضى .

ـــ ولدت بمنشية البكرى .. فللتان متجاورتان .. آل رمضان وآل الهلالى .. رمضان أبى كان لواء بالسوارى من باشوات الجيش القديم .. الهلالى من ملاك الأرض .. أنا البكرى وسرحان الوحيد .. لى أخ قنصل وأخ مستشار وأخ مهندس .. باختصار طردنا ـــ أنا وسرحان ـــ من المدرسة الثانوية بلا ثمرة ولكن بخبرة واسعة ببيوت الدعارة والحانات والمخدرات .. لم يترك أبى شيئا .. ورث سرحان سبعين فدانا .. أنشأ فرقة حبا فى الإدارة والنساء .. عملت معه ممثلا ..

انقطع ما بينى وبين إخوتى .. أجر بسيط .. ديون نثرية كثيرة .. لولا النسوان ..

ندت عن أم هانى آهة . تساءل فؤاد :

ـــ طبعا كان لك نشاط سياسى .. ؟

ضحكت مرة أخرى :

ـــ لا أنتمى إلا للحياة .. أنا وكرم يونس توأمان روحيان .. يقال إنه مدين فى نشأته إلى أم عاهرة .. حسن ، لقد نشأت أنا فى أسرة فكيف تفسر تماثلنا ؟ .. هذا يعنى أن الموهبة لا تتأثر بالبيئة ! . كلانا يحتقر الحياة المحترمة .. الحق أن ما يفرق بيننا وبين الآخرين هو أننا صادقون أما الآخرون فمنافقون ..

تساءلت أم هانى :

ـــ هل ستكتب هذا الهذيان ؟

فقلت متحديا :

ـــ فؤاد نفسه من حزبنا !

فتمتم فى مرح :

ـــ يا لك من وغد .. ولكن ألا تؤمن بوجود أخيار بكل معنى الكلمة ؟

ـــ طبعا ، مثل الأستاذ عباس مؤلف « أفراح القبة » .. إنه مثالى كما تعلم ، لذلك زج بوالديه فى السجن وقتل زوجه وابنه !

سألته أم هانى .

ـ ماذا ستكتب ؟

فقال وهو يتجه بنا نحو سيارته الفيات :

ـ لست مجنونا مثله ..

غادرنا السيارة أمام الحارة بالقلعة . منعه من الدخول طفح المجارى . سرنا على طوار متآكل ونشوتنا تخمد تحت وطأة الرائحة الكريهة . هل يتواصل النجاح ويتغير الحال ؟ . هل أتحرر من هذه الحارة الكئيبة وهذه المرأة الخمسينية التى تزن مائة كيلو ؟!

أنا وتحية نغادر البيت القديم بسوق الزلط فى طريقنا إلى المسرح . حبكت معطفها الأسود حول جسمها الناضج واخترقنا موجة من البرد فى عتمة المساء . يخطر لى أن جسمها معد للفراش لا للمسرح ، وأننا فى خيبة الموهبة سواء قلت لها :

ـ ونحن نحتسى الشاى ضبطت الولد يختلس إليك نظرة جائعة .

ـ عباس ؟ .. إنه مراهق ..

ـ سيعمل ذات يوم قوادا ماهرا ..

ـ إنه مؤدب ، متبرئ من بيته !

ـ ابن كرم وحليمة ، وفى هذا العصر العجيب ، ماذا تنتظرين ؟

الآن أدرك أننى لم أفطن إلى ما كان يدور فى نفسها ..

* * *

يقول لى سرحان الهلالى ضاحكا :

ـ ما تصورتك قط فى صورة عاشق حزين ..

وهل تصورت ذات يوم أننا نعبر القنال وننتصر ؟

ـ إنها مثلك فى الفقر ..

ـ حدثها .. أرجوك ..

ـ يا مجنون .. لقد قررت هجر المسرح .. إنه سحر الزواج ..

ـ يا للشيطان .. إنى أكاد أجن ..

ـ إنه الغضب ليس إلا .

ـ صدقنى .

ـ البرمجى لا يحتمل الهزيمة !

ـ ليس الأمر كذلك .

ـ بل هذا هو كل شيء .. ارجع من فورك إلى أم هانى لأنك لن تجد من يقرضك ..

بعد تردد قلت :

ـ أحيانا يخيل إلى أن الله موجود !

فقهقه قائلا :

ـ طارق يا بن رمضان .. حتى للجنون حدود !

* * *

نجاح « أفراح القبة » مستمر . نجاحى يتوكد ليلة بعد

أخرى . أخيرا صادف الهلالى المسرحية التى تثرى مسرحه . قرر لى مكافأة يومية أنعشت روحى وجسدى . وسألنى فؤاد شلبى :

ــ أعجبك ما كتبت عنك ؟

فشددت على يده بامتنان وقلت :

ــ بعد أكثر من ربع قرن تظهر لى صورة فى المجلة ...

ــ لن تتراجع بعد اليوم .. أما علمت لقد ظهر المؤلف المختفى ..

ــ حقا ؟!

ــ زار أمس الهلالى فى مسكنه ، أتعرف لماذا ؟

ــ هه ؟

ــ طالب بحصة من الأرباح ..

قهقهت عاليا حتى أزعجت عم أحمد برجل وراء البوفيه وقلت :

ــ ابن حليمة ! ... وماذا كان رد الهلالى ؟

ــ أعطاه مائة جنيه ..

ــ خسارة فى عينه ..

ــ لقد أصبح بلا عمل وهو منكب على كتابة مسرحية جديدة .

ــ ابتزاز ... وهيهات أن يكتب جديدا ذا قيمة ..

ــ فال الله ولا فالك !

ــ وأين كان مختفيا ؟

ــ لم يبح بسره لأحد ..

ـــ أستاذ فؤاد ألم تقتنع بتجريمه ؟

ـــ لمَ يقتل تحية ؟

ـــ لاعترافها بخيانته ..

فهز منكبيه و لم ينبس .

* * *

عندما رأيت النعش يتهادى من مدخل العمارة اجتاح جوفى فراغ مخيف تمادى حتى لفظنى فى العدم . هجم على البكاء هجمة غادرة فأجهشت . الصوت الوحيد الذى أثار المشيعين . حتى عباس كان جاف العينين . رجعت فى سيارة سرحان الهلالى . قال لى :

ـــ عندما سمعت بكاءك .. عندما رأيت منظرك .. كدت أنفجر ضاحكا لولا ستر الله ..

قلت باقتضاب :

ـــ كان مفاجأة لى أيضاً .

ـــ لا أذكر أنى رأيتك باكيا من قبل .

فقلت باسما :

ـــ لكل جواد كبوة .

أرجع الموت ذكريات الحب والهزيمة ..

* * *

سمعت بالخبر فى مقهى الفن قبل الذهاب إلى المسرح . هرعت إلى

حجرة سرحان الهلالى ، سألته :

ـــ الخبر صحيح ؟

فأجابنى بوجوم :

ـــ نعم كان عباس يقيم فى بنسيون فى حلوان .. غاب طويلا .. عثر على خطاب فى حجرته يعترف فيه بعزمه على الانتحار .

ـــ هل عثر على جثته ؟

ـــ كلا .. لم يعثر له على أثر ..

ـــ هل ذكر أسبابا لانتحاره ؟

ـــ لا ..

ـــ هل اقتنعت بانتحاره ؟

ـــ لمَ يختفى والنجاح يدعوه للظهور والعمل ؟

وفصل بيننا صمت كئيب حتى سمعته يتساءل :

ـــ لمَ ينتحر ؟

فقلت :

ـــ لنفس الأسباب التى انتحر من أجلها بطل مسرحيته .

ـــ إنك مصر على اتهامه .

ـــ أتحدى أن تجد سببا آخر ..

انفجر الخبر فى الوسط الفنى وبين جمهور المسرح . لم يسفر البحث عنه عن شىء . اتخذت الإجراءات المألوفة فى هذه الأحوال . داخلنى شعور عميق بالارتياح . قلت لنفسى :

ـــ لن يعرف نجاح المسرحية حدودا يقف عندها ..

كرم يونس

الخريف نذير فهل نتحمل برودة الشتاء ؟ . عمر ينقضى فى بيع الفول السودانى واللب والفشار . وهذه المرأة التى قضى علىّ بها مثل السجن . لم نسجن فى بلد تستحق غالبيته السجن ؟ قانون مجنون لا يدرى كيف يحترم نفسه . ماذا سيفعل كل هؤلاء الصبية ؟ . انتظر حتى تشهد هذه البيوت القديمة وهى تنفجر . التاريخ يحزن لتحوله إلى قمامة . المرأة لا تكف عن الأحلام . ولكن ما هذا ؟ . من هذا ؟ . شبح من الماضى . إلىّ بخنجر مسموم . ماذا تريد يا مستنقع الحشرات ؟ قلت لحليمة بامتعاض :

ـــ انظرى ..

دهشت . تساءلنا :

ـــ أيجىء للتهنئة أم للشماتة ؟

ـــ ها هو يقف ملقيا بابتسامته الكريهة . بعينيه الضيقتين وأنفه الغليظ وفكه القوى العريض . كن جافا معه مثل الزمن .

ـــ طارق رمضان ! .. ماذا جاء بك ؟

وقالت حليمة منفعلة :

ـــ أول زيارة من أهل الوفاء مذ رجعنا إلى سطح الأرض ..

فقال طارق :

ـــ ما أنا إلا غريق من الغرق ..

فقلت بحنق :

ـــ جئت من الماضى كذكرى من أسوأ ذكرياته ..

وشغلت عنه بزبون ثم رمقته بازدراء فقال :

ـــ معى أخبار سيئة !

فقالت حليمة :

ـــ لا تهمنا الأخبار السيئة ..

ـــ حتى لو تكن عن الأستاذ عباس يونس ؟

فقلت :

ـــ إنه ابن بار .. عرض على أن أعود إلى المسرح فلما رفضت أنشأ لنا هذه المقلى ..

وقالت المرأة :

ـــ وقد قبلت مسرحيته ..

لكنه ما جاء إلا من أجل المسرحية . هل أعمته الغيرة ؟ . يطيق الموت ولا يطيق أن ينجح عباس . فليمت بغيظه . إنك أصل البلاء . لا يفهمك مثلى فنحن من خرابة واحدة . قال :

ـــ المسرحية تدور فى هذا البيت ، عنكم ، وتهدى إلينا جرائم جديدة لم تخطر ببال أحد . أيمكن ذلك ؟ . عباس لم يقل لنا كلمة عن

موضوعه . لكنه شاب مثالى . تساءلت :

ــ ماذا تعنى ؟

ــ كل شيء .. كل شيء . ألا تريد أن تفهم ؟

ماذا يعنى ؟ . لماذا يفضح عباس نفسه ؟ . سألته :

ــ حتى السجن ؟

ــ وإنه هو الذى وشى بكما إلى الشرطة وهو الذى قتل تحية ..

ــ إنه لسخف ..

وتساءلت المرأة :

ــ ماذا تعنى يا عدو عباس ؟

وتساءلت رغم انقباض قلبى :

ــ أليست مسرحية ؟

وقالت حليمة :

ــ لديه التفسير الصحيح ...

ــ شاهدا المسرحية بنفسكما .

ــ أعماك الحقد .

ــ بل الجريمة ..

ــ ما مجرم إلا أنت !

وقلت له وانقباض لا يزايل قلبى :

ــ حاقد مجنون .. ابنى عبيط ولكنه ليس خائنا ولا قاتلا ..

فصاح :

ــ يجب القبض على قاتل تحية ..

اشتبك مع المرأة فى خصام جارح وأنا شارد فى أفكارى حتى سألته بخشونة :

ــ ماذا تريد ؟

وطردته شر طردة !

* * *

غصت فى بئر . لا يمكن أن يجىء من آخر الدنيا ليلقى بأكاذيب يسير كشفها . إنه وغد ولكنه ليس أحمق . لا قدرة لى على الانفراد بوساوسى . نظرت نحو المرأة فالتقيت بعينيها تنظران نحوى . إننا غريبان يجمعهما بيت قديم . لولا إشفاقى من إغضاب عباس لطلقتها . عباس وحده الذى يجعل للحياة المرة طعما مقبولا . إنه الأمل الوحيد الباقى .

تمتمت المرأة :

ــ إنه يكذب .

فسألتها وأنا أشد منها التماسا لنقطة رحمة :

ــ ولم يكذب ؟

ــ ما زال يحقد على عباس .

ــ ولكن هناك مسرحية أيضا .

ــ لا نعرف عنها شيئا ، اذهب إلى عباس ..

— سأقابله حتما ..

— ولكنك لا تتحرك .

إنى خائف . إنها غبية وعنيدة . قلت :

— لا داعى للعجلة .

— يجب أن يعرف ما يدبر من وراء ظهره .

— وإذا اعترف ؟

— ماذا تعنى ؟

— إذا اعترف بأن مسرحيته تحوى ما قال الوغد ؟

— ستجد التفسير المريح .

— لا أدرى .

— لم يفضح نفسه إذا كان قاتلا حقا ؟

— لا أدرى ..

— تحرك .. هذا هو المهم .

— سأذهب طبعا .

— أو أذهب أنا .

— ليس عندك ملابس صالحة .. صادروا نقودنا .. ضربنى المخبر الكلب .

— ذاك تاريخ مضى .. فكر الآن فيما نحن فيه .

— الوغد كاذب .

ــ يجب أن تسمع بأذنك .

ــ لم يكن يوافق على حياتنا .. كان مثاليا كأنه ابن حرام .. ولكنه لا يغدر بنا ، ثم لماذا يقتل تحية ؟

ــ إنك تستجوبنى أنا ..

ــ إنى أفكر .

ــ لقد صدقت ما قال الوغد .

ــ وأنت أيضا تصدقينه .

ــ يجب أن نسمعه .

ــ الحق أننى لا أصدق ..

ــ إنك تهذى ..

ــ اللعنة ..

ــ اللعنة حلت يوم ارتبطت بك ..

ــ ويوم ارتبطت بك ..

ــ كنت جميلة ..

ــ هل رغب فيك أحد غيرى ؟

ــ كنت دائما مرغوبة .. إنه سوء الحظ .

ــ كان أبوك ساعى بريد أما أبى فكان موظفا فى دائرة الشمشرجى ..

ــ ذلك يعنى أنه كان خادما .

ـــ أنا من أسرة ..

ـــ وأمك ؟

ـــ مثلك تماما ..

ـــ مخرف .. ولكنك لا تريد أن تذهب ..

ـــ سأذهب عندما يروق لى ..

تشتت فكرى . ليكن ما يكون . لن يصيبنا أسوأ مما أصابنا . ألم نبدأ ـــ أنا وهذه المرأة ـــ من ملتقى مفعم بالحرارة والرغبة والأحلام الجميلة ؟ .. أين نحن من ذلك الآن ؟. ولكن يجب أن أذهب على أى حال . لعل العصر هو أنسب الأوقات .

* * *

لم أعرف مسكن ابنى من قبل . منذ زواجه انفصلنا . لم يكن بيننا خير . كان يرفض حياتنا ويحتقرها فنبذته واحتقرته . وبانتقاله إلى بيت تحية تحررت من نظراته المتعضة . أسعى إليه الآن بعد أن لم يبق أمل غيره . تلقانا بعد السجن ببر ورحمة فكيف يكون هو الذى زج بنا فيه ؟ . سألت البواب عنه فقال :

ـــ ذهب منذ ساعتين حاملا حقيبة ..

ـــ سافر ؟

ـــ قال إنه سيغيب بعض الوقت ..

ـــ ألم يترك عنوانه الجديد ؟

ــ كلا .

ذهلت . حدث ما لم أتوقعه . لِم لَم يخبرنا ؟ . هل بلغته اتهامات طارق له ؟ . وبازدياد قلقى قررت أن أقابل سرحان الهلالى . ذهبت إلى مسرح الغد بعماد الدين وطلبت المقابلة . فسرعان ما أذن لى . وقف مرحبا بى وهو يقول :

ــ أهلا حمدا لله على السلامة .. لولا ظروفى لزرتك مهنئا .

ــ سرحان بك ، عذر غير مقبول ..

فضحك و لم يكن شيء يحرجه أو يربكه وقال :

ــ لك حق .

ــ إنها عشرة طويلة ، لقد قضيت عمرا ملقنا لفرقتك ، وفتحت لك بيتى حتى قبض على ..

ــ إننى مخطئ فى حقك .. تشرب قهوة ؟

ــ لا قهوة ولا شاى ، إنى قادم بخصوص عباس ابنى ..

ــ تقصد المؤلف المثير .. ستنجح مسرحيته يا كرم نجاحا غير عادى وأنت أدرى الناس بإحساسى ..

ــ عظيم .. ولكننى لم أجده فى مسكنه ، وقال البواب إنه حمل حقيبته وذهب ..

ــ وماذا يقلقك من ذلك ؟ .. إنه شارع فى تأليف مسرحية جديدة .. ولعله وجد مكانا هادئا ..

— بلغتنى أشياء عن موضوع المسرحية فخفت أن يكون لذلك علاقة بذهابه ..

— تفكير خاطىء يا كرم .

— طارق حاقد وهو ..

فقاطعنى :

— لا تحدثنى عنه فإنى أعلم به ، ولكن لا داعى للقلق على ابنك على الإطلاق ..

— أخشى أن يكون قد ..

وسكت فقال ضاحكا :

— المسرحية خيال ولو كانت ..

— خبرنى عن رأيك بصراحة ..

— لم أشغل عقلى دقيقة إلا بالمسرحية نفسها .. ما ارتكبه البطل فى المسرحية فى صالح المسرحية ، هذا ما يهمنى ..

— ولكنه وشى بوالديه وقتل زوجته ؟

— خير ما فعل ؟

— ماذا تعنى ؟

— ذلك ما خلق المأساة ..

— ألم تشعر بأن ذلك قد حدث فعلا فى الحياة ؟

— لا يهمنى ذلك ألبتة .

ـــ أريد أن أعرف الحقيقة ..

ـــ الحقيقة المسرحية عظيمة ، وأنا كما تعلم مدير مسرح لا وكيل نيابة ..

ـــ وأنا معذب !

فضحك الهلالى وقال :

ـــ لا أدرى شيئا عما تتحدث عنه ، ثم إنك لم تكن تحبه قط . ؟

ـــ الحاضر غير الماضى وأنت سيد من يفهم ..

ـــ المسرحية مسرحية لا أكثر من ذلك ، وإلا جاز للقانون أن يدخل ٩٠٪ من المؤلفين قفص الاتهام ..

ـــ إنك لا تريد أن تريحنى ..

ـــ ليتنى أملك ذلك يا كرم ، لا تشغل نفسك بأوهام سخيفة ، ولن يشاركك فيها إلا قلة من الأصدقاء المعروفين أما الجمهور فلن يخرج عن حدود المسرحية ، لماذا رفضت أن ترجع إلى وظيفتك القديمة كملقن للفرقة ؟

ـــ شكرا ، اقترح عباس ذلك مؤيدا اقتراحه بموافقتك ولكنى لا أحب الرجوع إلى الماضى ..

فضحك الهلالى وقال :

ـــ إنى أفهم ذلك ، أنت الآن سيد نفسك ، ولعل المقلى أربح ، ليكن ياعزيزى ، ولكن لا تقلق على عباس ، إنه يبنى نفسه وسيظهر فى

الوقت المناسب ..

انتهت المقابلة . غادرته وأنا أنوء باحتقارى للجنس البشرى . لا أحد يحبنى ولا أحب أحدا . حتى عباس لا أحبه وإن تعلق به أملى . الغادر القاتل . ولكن فيم ألومه وأنا مثله ؟ . لقد تقشر الطلاء عنه فتجلى على حقيقته الموروثة عن أبيه . الحقيقة المعبودة فى هذا الزمان التى توشك أن تعلن ذاتها بلا نفاق . ما الفضيلة إلا شعار كاذب يتردد فى المسرح والجامع . كيف زج بى فى السجن فى زمن الشقق المفروشة وملاهى الهرم ؟ . من هذا ؟ . صادفت طارق رمضان أمام باب البوفيه . مد إلى يد ثعبان فرفضته . قلت له أن ابعد عن وجهى .

* * *

لم أخطئ . أليس هو زمن المخدرات ؟ . وأنا رجل بلا قيود . لا أخلص إلا للغريزة . مثلى تماما أولئك الرجال ولكنه الحظ وحده . تقول حليمة :

— أتظن أن أجرى وحده يكفى للإنفاق على بيتك وابنك ؟

— إنى على أتم استعداد للشجار !

— الأفيون يهدم كل شىء ..

— فليهدم كيف شاء ..

— وابنك ؟ ... إنه ولد رائع جدير بالرعاية ..

لم أخطئ.لقنتنى أمى مبادئ الصواب الأبدى . حليمة تدأب فى

تمثيل دور السيدة المحترمة وتتناسى ماضيها الداعر . لن أسمح للنفاق بالمعيشة فى بيتى .

وقلت للهلالى :

ـــ إنكم تتعبون أحيانا للعثور على بيت مناسب ، إليكم بيتى .

حدجنى باهتمام فقلت :

ـــ فى أعماق باب الشعرية ، الجن نفسه لن يرتاب فيه .

لم أخطئ. البيت القديم يتجدد على مبادئ جديدة . ينفض عنه الغبار . تتأهب أوسع حجرة فيه لاستقبال القادمين من الجحيم . أحترم هؤلاء العظام الذين يمارسون الحرية بلا نفاق . الهلالى والعجرودى وشلبى وإسماعيل وطارق وتحية . أعد أيضا مخزن من الأطعمة الجافة والشراب والمخدرات . حليمة تتوثب للنفاق . إنى لا أرحم المنافقين . تثوب إلى حقيقتها الكامنة . تمسى ربة البيت الجديد بكل كفاءة . جميلة وذكية وحرة مثلى وأكثر . جديرة بقيادة ماخور . أمطرت السماء ذهبا . ولكن لم ينظر الولد إلينا بامتعاض ؟ . ابن من أنت ؟ . من أبوك ؟ . من أمك ؟ . من جدتك ؟ . ابن حرام أنت ، ابن الكتاب والمسرح ، وتصدق النفاق يا غبى . وتقول حليمة :

ـــ الولد يقتله الحزن ..

ـــ ليقتله الحزن كما يجدر بأى غبى .

ـــ إنه يرفض .

ــ لا أحب هذه الكلمة ..

ــ إنه يستحق الرحمة ..

ــ إنه يستحق القتل ..

أصبح يمقتنى ويقتلع الحب القديم من قلبى ..

ــ انتبه لحياتك .. عش الواقع .. قلة نادرة تظفر بمثل طعامك .. انظر إلى الجيران .. ألا تسمع عما يجرى فى البلد ؟ . ألا تفهم ؟ . من أنت ؟ ..

عيناه تعكسان نظرة غريبة . إنه يعيش خارج أسوار الزمن . ماذا يريد ؟ . اسمع موعظة . هذا البيت بناه جدك . لا أدرى عنه شيئا . جدتك جعلت منه مهدا لغرامها . أرملة وشابة ولا تختلف عن أمك . أبوك نشأ فى أحضان الحقيقة . أود أن أحكى لك كل شىء . هل أخشاك ؟! . لولا أن عاجلت الوفاة جدتك لتزوج منها الباشجاويش ولضاع البيت . أراد أن يستولى علىّ بعد وفاتها ولكنى ضربته . لذلك سعى حتى جندت فى الجيش القديم ولكن البيت بقى . أم هانى قريبة أمى وقوادة الهلالى كانت الوساطة لأتعين ملقنا بالفرقة . أود أن ألقى عليك هذه السيرة ذات يوم لتعرف أصلك وتنتمى بلا مقاومة كاذبة إلى مبادئك الحقيقية . كن مثل أبيك ليجمعنا الحب كما كان وأنت صغير . ولا تنخدع بنفاق أمك . ستعرف كل شىء ذات يوم . هل أخشاك يا ولد ؟ !

* * *

رجعت إلى المقلى فسألتنى حليمة بلهفة :

ـ ماذا قال لك ؟

ـ لم أقابله ، غادر الشقة إلى مكان مجهول حاملا حقيبته ..

ضربت فخذيها بقبضتيها وقالت :

ـ مكان مجهول ! .. لِم لَم يخبرنا ؟

ـ من أدراك أنه يفكر فينا ؟

ـ إنه هو الذى فتح لنا هذه المقلى .

ـ وانتهى منا ، إننا بالنسبة له اليوم ماض يحسن نسيانه ..

ـ إنك لا تفهم ابنى ، ليتك ذهبت إلى الهلالى ..

صمت متأثرا بدفقة غيظ مجهولة البواعث فراحت تقول :

ـ إنك لا تحسن التصرف !

فقلت بازدراء :

ـ أود أن أفلق رأسك ..

ـ هل رجعت إلى الأفيون ؟

فقلت ساخرا :

ـ لا يطمع إليه اليوم إلا الوزراء !

ثم استطردت :

ـ الهلالى لا يدرى شيئا عن مكانه ..

فتساءلت بقلق :

ـ زرته ؟

ـ لا يدرى شيئا عن مكانه ..

ـ أين ذهب ابنى ؟ . هل أخلى شقته ؟ .

ـ لا .

ـ سيرجع .. لعل فى الأمر امرأة ..

ـ تفكير ينسجم مع امرأة مثلك !

فهتفت :

ـ لا يهمك أمره ، لا يهمك إلا نفسك ..

ـ قضى على بأن أخرج من سجن إلى سجن ..

فقالت بحنق :

ـ أما أنا فإنى أعيش فى زنزانة !

ومن شدة القهر نشجت باكية فتضاعف حنقى عليها . وتساءلت فى غرابة كيف أحببتها ذات يوم ؟

* * *

البوفيه الأحمر . جدرانه وسقفه مطلية بحمرة قاتمة ، كذلك أغطية مناضده وبساطه السميك . اتخذت مجلسى أمام طاولة الساقى عم أحمد برجل على كرسى جلدى طويل إلى جانب أنثى لم أتبينها . قدم لى كالعادة سندوتش فول وفنجان شاى . وبالتفاتة لابد منها بهرنى شباب ذو جمال رائق . أدركت أنها ـ مثلى ـ موظفة فى المسرح ففى الساعة الثامنة

لا يتواجد أحد من الخارج . سمعت عم أحمد يسألها :

ـــ هل من جديد عن الشقة يا آنسة حليمة ؟

فأجابت بصوت دسم :

ـــ البحث عن الذهب أسهل .

واندفعت متأثرا بانبهارى :

ـــ هل تبحثين عن شقة ؟

فأحنت رأسها بالإيجاب وهى تزدرد رشفة شاى فقال عم أحمد يعارف بيننا :

ـــ السيد كرم يونس ملقن الفرقة .. آنسة حليمة الكبش قاطعة التذاكر الجديدة .

فسألت بجرأة لا تنقصنى :

ـــ من أجل زواج ؟

فأجاب عم أحمد عنها :

ـــ إنها تقيم مع خالتها فى شقة صغيرة مكتظة وتحلم بشقة صغيرة خاصة ولكن هناك عقبة الإيجار وعقبة خلو الرجل .

وقلت بلا تريث :

ـــ عندى بيت ..

فالتفتت نحوى باهتمام لأول مرة متسائلة :

ـــ حقا ؟

ــ بيت كبير ، إنه قديم ولكنه مكون من طابقين ..

ــ الطابق شقة ؟

ــ كلا .. إنه ليس مقسما إلى شقق ..

فسألنى عم أحمد :

ــ ممكن تستقل بطابق ؟

ــ ممكن جدا ..

فسألت هى :

ــ ألا يضايق ذلك الأسرة ؟

ــ إنى أقيم فيه وحدى ..

فرفعت حاجبيها معرضة عنى فقلت مدافعا عن حسن نيتى .

ــ ستجدين الطابق آمنا أنت وأسرتك ..

فلم تنبس معتبرة الموضوع منتهيا أما عم أحمد فسألنى :

ــ وكم الإيجار ؟

ــ لم يستأجره أحد من قبل ولست طماعا بحال !

فسألنى جادا :

ــ هل اتيك بساكن ؟ .

فقلت بنبرة إعلامية :

ــ لا أود ذلك ، إنه بيت الأسرة وله ذكرياته ، وإنما أردت أن أقدم خدمة للآنسة بصفتها زميلة لى فى المسرح ..

فضحك عم أحمد برجل وقال :

ـــ أعطنا فرصة للتفكير وربنا يسهل ..

وذهبت الآنسة مخلفة فى نفسى انتعاشا وحيوية ورغبة حريفة .

* * *

ها هى مقوسة فوق كرسيها متشابكة الذراعين ، تعكس عيناها نظرة قرف ممتعضة وتنعقد فوق جبينها تكشيرة كاللعنة . أليست الوحدة خيرا من عشير النكد ؟ . أين الانبهار القديم ؟ . أين سكرته المشعشعة ؟ . فى أى مستقر من الكون تحنطت ؟.

* * *

كلما رأيتها فى البوفيه الأحمر قلت لنفسى « هذه الفتاة تستحوذ علىّ كالجوع » . إنى أتخيلها تمرح فى البيت القديم ، تجدد شبابه ، تدفئ دماءه . أتخيلها وهى تشفينى من عللى المزمنة .

ودأب عم أحمد برجل على تشجيعى كلما انفرد بى . قال لى مرة :

ـــ حليمة قريبة لى من ناحية أمى .. متعلمة وذكية .. أنا من سعيت عند الهلالى بك لإلحاقها بعملها ..

فشجعته بدورى قائلا :

ـــ بنت ممتازة حقا !

ـــ خالتها طيبة ، والبنت ذات خلق ..

ـــ لا شك فى ذلك .

ورمقني بابتسامة سكرت بها رغبتي المتحفزة . استسلمت لأنامل ناعمة ، لنعاس مهدهد بأحلام اليقظة . وانفسحت أمامي عذوبة الحواس الطاغية . قلت له ذات يوم :

ـــ ياعم أحمد ، إني أرغب بصدق ..

أدرك البقية المضمرة من كلامي وتمتم بانشراح :

ـــ جميل وحكيم ..

ـــ لا دخل لي سوى أجري ولكنني أملك المسكن وهو امتياز لا يستهان به في هذه الأيام .

ـــ الرغبة في الستر أهم من الظواهر .

وفي نفس الأسبوع استقبلني قائلا :

ـــ مبارك يا كرم .

دخلت منطقة الظل الحنون ، منطقة الخطوبة الصافية . منطقة شفافة يمتزج في نسيجها الحريري وشي الحلم وعذوبة الواقع . أهدتني كيسا جلديا تصطف في ثغراته وعلاقاته أدوات حلاقة الذقن فسعدت به في طفولة . وإذا بسرحان الهلالي يرفع أجري جنيهين مهنئا إياي بحياتي الجديدة . واحتفل بنا رجال المسرح في البوفيه وشيعونا بالأزهار والحلوى .

* * *

فيم تفكر المرأة ؟ .. يدها المعروقة تعبث بالفشار ولا ينطوي رأسها

على فكرة مريحة واحدة . قضى علينا أن نتبادل الضجر فى هذه الزنزانة . القاذورات منتثرة فوق أديم الشارع العتيق محددة له معالم جديدة تحت دفقات الضوء . هبات الهواء تطير ما خف منها فيزحم أقدام صبية لا حصر لهم . فيم تفكر المرأة ؟ ..

* * *

ليلة الدخلة ؟ . أجل عند صياح الديكة . وقد جذبتنا الحقيقة نحو بؤرة خانقة . وغابت الأعين فلم يبق إلا التاريخ . انقبض قلبى حيال الحيرة المقتحمة . كدت أتصور أن الوجود قد مات لولا تصاعد النحيب المكتوم . وقال النحيب كل شيء . وتمتمت :

ـــ لن أسامح نفسى ..

حقا ؟ .. وتمتمت أيضا :

ـــ كان يجب أن ..

ماذا ؟ .. لا داعى لمزيد . وأيضا تمتمت :

ـــ لكنى أحببتك ..

عرفت سرها ولكنها لم تعرف سرى بعد .من أين لها أن تعلم أن رجلها ينحدر إليها من عهد سابق على التاريخ ؟ . من أين لها أن تتصور مدى حريته ؟ . لم أكترث للعبة . كانت مجرد دهشة فقط . وحتى الدهشة استسخفتها . وقلت بسخرية عميقة :

ـــ لا يهمنى الماضى .

فأحنت رأسها ، ربما لتخفى ارتياحها ، وقالت :

ـــ إنى أحتقر الماضى وأولد من جديد ..

فقلت بنبرة عادية :

ـــ هذا حسن .

نبذت أى رغبة فى مزيد من المعرفة . لست غاضبا ولا مبتهجا ولكنى أحبها . وانغمست فى حياتى الجديدة بحرارة صادقة .

* * *

تمر الساعات فلا نتبادل كلمة واحدة . مثل حبات الفول السودانى . ما من زبون يجىء إلا ويشكو الغلاء والمجارى الطافحة والطابور المهلك أمام الجمعية الاستهلاكية . أبادله العزاء . ربما نظر إلى المرأة متسائلا .

ـــ مالك ساكتة يا أم عباس !!

أى أمل أرتقبه أنا ؟ . هى على الأقل تنتظر عودة عباس .

* * *

انغمست فى الزوجية بحرارة صادقة . انزعجت عندما وافتنى بيشائر الأمومة ولكنه كان انزعاجا عابرا .

وقد عشقت عباس فى طفولته . وبدأ كل شىء يتغير منذ قال لى طارق رمضان :

ـــ حوار هملت صعب .. ذوب هذه فى فنجان شاى ..

بدأت رحلة جديدة جنونية . صادف الإغراء رجلا لا يهمه شيء. وكانت ينابيع الحياة تجف ، ومسراتها تختنق فى قبضة أزمة قاسية . وتقول حليمة :

— أتريد أن تنفق أجرك على السم وتتركنى أواجه الحياة وحدى ؟ .

أى صوت قبيح كأنما يصدر عن المجارى الطافحة . صرنا مثل شجرتين متعريتين . الجوع يطرق باب البيت القديم .

وذات يوم قلت لها بارتياح :

— نهاية حميدة .

— عم تتحدث ؟

— فلنعد الحجرة الشرقية للعب ..

— هه .. ؟!

— سيجيئون كل ليلة ولن نشكو الفقر ..

رمقتنى بنظرة غير متوقعة لخير فقلت :

— الهلالى ، العجرودى ، شلبى ، إسماعيل . أنت فاهمة ، ولكن علينا أن نعد لهم ما يلزمهم ..

— إنه قرار خطير ..

— لكنه حكيم .. أرباحه خيالية ..

— لم يكفنا أن يقيم عندنا طارق وتحية .. نحن نتدهور ..

نحن نرتفع ... ليسكت صراخك وصراخ ابنك ..

ـــ ابنى ملاك .. إنه الرعب له ..

ـــ عليه اللعنة إن تحدى أباه .. إنك تفسدينه بأفكارك السخيفة .. إنها تستسلم بامتعاض . أنسيت ليلة الدخلة ؟ . عجيب أن يطمح أناس للتحرر من الحكومة على حين يرسفون بكل ارتياح فى القيود الكامنة فى أنفسهم ..

* * *

ها هى راجعة من مشوارها . لولا خدمتها فى البيت لتمنيت ألا ترجع . ينم وجهها عن الخيبة . لم أسألها عن شىء . أهملتها حتى قالت متنهدة :

ـــ ما زالت شقته مغلقة ..

رحبت بزبون لأتجنبها فلما ذهب قالت بحدة كريهة :

ـــ افعل شيئا ..

غبت عنها راجعا إلى فكرة طالما أثارتنى وهى كيف تزج الحكومة بنا فى السجن من أجل أفعال ترتكبها هى جهارا ؟ . ألا تدير هى بيوتا للقمار ؟ . ألا تشجع المواخير المعدة للضيوف ؟ . إنى معجب بسلوكها ولكنى ثائر على نفاقها الظالم . وارتفع صوت المرأة وهى تقول :

ـــ اذهب مرة أخرى إلى المدير .

فقلت ساخرا :

ـــ اذهبى إليه بنفسك فهو أقرب إليك منى !

فهتفت بحنق :

ـــ الله يرحم أمك !

ـــ على أى حال لم تكن منافقة مثلك ..

فتأوهت قائلة :

ـــ إنك لا تحب ابنك ، و لم تحبه قط ..

ـــ لا أحب المنافقين ولكنى لا أنكر مساعدته لنا .

فولتنى ظهرها متمتمة :

ـــ ترى أين أنت يا عباس ؟!

* * *

أين سرحان الهلالى ؟ . غادر مجلسه ولكنه لم يرجع . لا يمكن أن ينام فى دورة المياه . اللعب مستمر وأنا أجمع نصيبى عقب كل دورة . أين حليمة ؟ . أما آن لها أن تقدم شيئا من الشراب ؟ أتساءل :

ـــ أين المدير ؟

لم يجب أحد . كل مشغول بورقاته . ترى هل حدجنى طارق بنظرة ساخرة ؟! يجب أن تقدم حليمة شيئا من الشراب .

ـــ يا حليمة !

لا جواب . لن أتخلى عن موقعى وإلا سرقت .

ـــ يا حليمة ..

دوى صوتى عنيفا . جاءت بعد قليل .

— أين كنت ؟

— غلبنى النوم ..

— أعدى شرابا .. وحلى محلى حتى أرجع ..

غادرت حجرة اللعب . صادفت عباس فى صالة الدور الأول . سألته :

— ماذا أيقظك فى هذه الساعة ؟

— أرق طارئ ..

— أرأيت سرحان الهلالى ؟

— غادر البيت ؟

— متى ؟

— منذ قليل .. لا أدرى بالضبط ..

— هل رأته أمك ؟

— لا أدرى !

لم ذهب ؟ .. لماذا ينظر إلى الولد واجما ؟ .. إنى أشم رائحة غريبة . إنى أى شىء ولكنى لست مغفلا . وعندما لم يبق فى البيت إلا أعقاب السجائر والكئوس الفارغة رمقت المرأة بنظرة طويلة ثم سألتها :

— ماذا حدث من وراء ظهورنا ؟

فرمقتنى بازدراء وتجاهلتنى تماما فعدت أسأل :

ـــ عباس رأى ؟

فلم تجب وازددت غضبا .. فقلت :

ـــ إنه هو الذى ألحقك بالعمل ..

فضربت الأرض بقدمها فقلت بسخرية :

ـــ لا شيء بلا ثمن ، هذا ما يهمنى ، أما أنت فلا تستحقين الغيرة !

اندفعت نحو حجرتها وهى تقول :

ـــ إنك أحقر من حشرة !

فقلت مقهقها :

ـــ إلا حشرة واحدة ..

* * *

ها هى راجعة من مشوار جديد . فلتزدادى عذابا وجنونا . لبثت واقفة فى المقلى وراحت تقول :

ـــ فؤاد شلبى مطمئن تماما ..

ـــ قابلته ؟

ـــ فى مقهى الفن ..

ـــ من أين له أن يعلم ؟

ـــ قال إنها نزوة مؤلف وأنه سيظهر فى الوقت المناسب وبيده مسرحية جديدة ..

ـــ لابد من كلمة لتهدئة امرأة مجنونة مخرفة ..

جرت كرسيها إلى أقصى المقلى وجلست ومضت تحدث نفسها :

ـــ لو أراد الله لوهبنى حظا أسعد ، ولكنه رمى بى إلى رجل سافل مدمن ..

فقلت بسخرية :

ـــ هذا جزاء من يتزوج من عاهرة .

ـــ الله يرحم أمك . عندما يرجع عباس سأذهب معه ..

ـــ إذن فليرجع عباس رحمة بى ..

ـــ من يتصور أنك أبوه ؟

ـــ ما دام قد قتل زوجته وزج بوالديه فى السجن فهو ابنى وإنى لفخور به !

ـــ إنه ملاك ، وهو من صنع يدى أنا ..

تمنيت أن تكلم نفسها حتى تجن . وتذكرت صفعة المخبر على قفاى واللكمة التى أسالت الدم من أنفى . الكبسة مثل زلزال مدمر . حتى سرحان الهلالى شد جفناه من الذعر . ومصادرة المال المخزون الذى بعنا أنفسنا حبا فيه . يا لها من قشعريرة .

* * *

أى شيطان يرقص فى الصالة ؟! .

غادرت الحجرة فرأيت طارق وعباس وهما يتضاربان . حليمة تصرخ . اجتاحنى الغيظ . صرخت :

ــ ما هذا العبث ؟

صاح طارق :

ــ مسرحية هزلية .. المحروس سيتزوج من تحية ..

بدا لى الأمر سخيفا ، ومهددا بإطفاء نشوة المخدر المتصاعدة .

صاحت حليمة :

ــ أى جنون ! .. إنها أكبر منك بعشرة أعوام ..

وتدفقت الإنذارات من فم طارق مع نثار لعابه فقالت له حليمة بشدة :

ــ لا تزد الأمور سوءا ..

فصرخ طارق :

ــ سأهدم البيت على من فيه .

سكت غيظى وتسللت إلى السخرية واللامبالاة . وقبل أن أتفوه بكلمة قالت حليمة لطارق :

ــ خذ ملابسك ومع السلامة .

فهتف :

ــ من وراء ظهرى فى هذا البيت القذر .

فقلت له بهدوء تبدى غريبا فى ذلك الجو العاصف :

ــ إنه قذر بسبب وجودكم فيه ..

فلم يعن بالالتفات إلى ، أما حليمة فسألت عباس :

ــ أحقيقى ما يقول ؟

فأجاب المحروس :

ــ اتفقنا على ذلك .

فسألته دون مبالاة :

ــ لِم لَم تتفضل باستشارتنا ؟

فلم يرد فرجعت أسأله :

ــ هل يكفى أجرها للإنفاق على بيت زوجية ؟

فقال عباس :

ــ سأحل محلك ملقنا للفرقة ..

ــ من مؤلف إلى ملقن ؟

ــ لا تناقض بين الاثنين .

فصاحت حليمة بصوت متشنج :

ــ ابنى مجنون .

وقالت لطارق :

ــ لا تكن أنت أيضا مجنونا .

فعاد يهدد فصاحت به :

ــ غادر بيتنا .

فمضى وهو يقول :

ــ باق على أنفاسكم ليوم القيامة ..

خلا المكان للأسرة الكريمة . جعلت أردد عينى بينهما فى شماتة وسخرية . قالت له بضراعة :

— ما عرفتها إلا خليلة لهذا أو ذاك ..

فقلت مقهقها :

— أمك خبيرة .. اسمع وافهم ..

واصلت ضراعتها :

— أبوك كما ترى وتعلم أصبح لا شئ ، أنت أملنا ..

فقال عباس :

— سنبدأ حياة جديدة .

فسألته ضاحكا :

— لماذا خدعتنا طويلا بمثاليتك ؟!

غادر عباس البيت فأجهشت هى فى البكاء . رحبت فى أعماقى بذهابه النهائى الوشيك . هللت لتحطم التحالف الكريه القائم بينه وبين أمه ضدى . إنه صوت معارضة دائم . ضقت به وكرهته وها هو يختفى فيكتسب البيت هدوءا وانسجاما . كنت أخافه أحيانا . تتجسد فيه أقوال أزدريها وأفعال أحتقرها . وجعلت حليمة تندب حظها مولولة :

— وحدى .. وحدى ..

فقلت لها بهدوء :

— وحدك ؟ .. لا تدعى ما ليس فيك ، فيم تختلف ؟ .. نبع واحد

وحياة واحدة وهدف واحد ..

فحدجتنى بنظرة تنز مقتا واحتقارا ومضت إلى حجرتها مشيعة بقهقهتى العالية .

* * *

نظرت إلى ظهرها عابرا تلال الفول السودانى واللب والفشار والحمص المعبأة فى جيوب الطاولة الممتدة . أى حياة تمضى بلا سرور وفى جو مشحون بالكراهية والدخان ! . عودة الولد ونجاحه خليقان بأن يضيفا إليها جدة وإثارة !

* * *

أنا مرح ، حليمة تدارى وجومها . سرحان الهلالى يتساءل :

ــ أين طارق وتحية ؟

ويقول سالم العجرودى :

ــ انكماش خطير فى اللعب ..

وقلت ضاحكا :

ــ أخبار مثيرة يا سرحان بك ، ابنى المجنون تزوج من تحية !

ضجت المائدة بالضحك وقال إسماعيل :

ــ الظاهر أن ابنك فنان حقيقى ..

وقال الهلالى :

ــ الولد الصغير ؟! .

فقال شلبى :

ـــ زواج الموسم !

وقال إسماعيل :

ـــ تجدون طارق الآن فى الصحراء مثل مجنون ليلى !

وضجت المائدة بالضحك مرة أخرى ولكن سرحان قال بنبرة ذات معنى :

ـــ ولكن حليمة لا تشارك فى الأفراح ..

فقالت حليمة وهى تواصل إعداد الشراب :

ـــ حليمة فى مأتم !

ـــ من يدرى ؟.. ربما تصادفه السعادة التى لا ندرى أين تقيم ..

فقال سالم العجرودى :

ـــ تحية امرأة طيبة رغم كل شىء ..

فقلت وأنا أضحك عاليا :

ـــ رغم كل شىء !

فقالت حليمة بحنق :

ـــ السعادة فى هذه الأيام من نصيب البغال .

وتساءل سرحان :

ـــ وهل يواصل محاولاته فى تأليف المسرحيات ؟

فقالت حليمة :

ــ طبعا ..

فقال باسما :

ــ عظيم .. ستهبه تحية تجارب مفيدة !

ثم انهمكت فى جمع النقود وأنا أتذوق أول ليلة تمر بلا رقيب .

* * *

المرأة تبحث عن ابنها وأنا فى المقلى وحدى . ترى أى نهاية رسمها لها فى المسرحية ؟ . فاتنى أن أسأل عن ذلك ! . هل يسدل الستار ونحن فى السجن ؟ .. فى المقلى ؟ . ويجىء زبون فى أعقاب زبون . هؤلاء الناس لا يدرون كم أحتقرهم وأمقتهم . منافقون . يفعلون مثلنا ويؤدون الصلاة فى أوقاتها . أنا خير منهم . أنا حر أنتمى إلى عصر سابق للدين وقواعد السوك . لكننى محاصر فى هذه المقلى بجيوش المنافقين . كل رجل وكل امرأة ..مثل الدولة . لذلك تتركك للمجارى والطوابير وتجود عليكم بالخطب الرنانة . ويحطم ابنى رأسى بمواعظه الصامتة ثم يرتكب الخيانة والقتل . ولو تيسر الأفيون وحده لهان كل شىء . لماذا تغرر بنا أيام الخطوبة ؟ . لماذا تهمس لنا بعذوبة غير موجودة ؟ .

ــ إنى مدين لعم أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر .

ــ لا تبالغ .

ــ حليمة .. ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه فى العدم !

وتألقت ابتسامة مثل فلة يانعة . أين تختفى هذه العذوبة ؟ . آه لو أن

الرجوع فى الزمان ممكن مثل الرجوع فى المكان . فى كائنى البدائى ركن ساذج يطيب له أحيانا أن يبكى الأطلال . كرم الذى لم يعد موجودا يبكى حليمة التى لم تعد موجودة .

ها هى المرأة راجعة . دخلت وجلست دون تحية . تجاهلتها تماما و لم تنبس . فى عينيها طمأنينة فماذا عرفت ؟! . لا شك أن ثمة خبرا طيبا تضن به على . الخنزيرة . لو كان شرا لصبته على رأسى قبل أن تدخل.هل رجع عباس ؟ . أبيت أن أسأل . ومضى وقت حتى قالت :

ــ نحن مدعوان لمشاهدة المسرحية ..

وقدمت إلى إعلانا مطبوعا . استقر بصرى على اسم المؤلف « عباس يونس » . جرفنى زهو . تساءلت :

ــ هل نذهب ؟

ــ أى سؤال !

ــ قد لا يسرنا أن نرى أنفسنا ..

ــ المهم أن ترى مسرحية عباس ..

صمت فقالت :

ــ قلبى يحدثنى بأن المؤلف سيظهر حتما ..

ــ من يدرى ؟

ــ قلبى يدرى .

* * *

ذهبنا فى أحسن صورة ممكنة . ارتديت بدلة لا بأس بها واستأجرت حليمة ثوبا ومعطفا من أم هانى . استقبلونا استقبالا حسنا . وقالت حليمة :

— ولكنى لا أرى المؤلف .

فقال سرحان الهلالى :

— لم يحضر ولكنى أخبرتك بما فيه الكفاية ..

إذن قد قابلته وتلقت أخبارا لا بأس بها . ولما كان الوقت مبكرا فقد ذهبنا لزيارة عم أحمد برجل . قدم لنا — هدية منه — سندوتشين وقدحين من الشاى وهو يقول ضاحكا :

— مثل الأيام الماضية !

لم نعلق لا بكلمة ولا بابتسامة . وفى الوقت المناسب انتقلنا إلى مقاعدنا فى الصف الأول . كان المسرح كامل العدد فقالت حليمة :

— هو النجاح .

فتمتمت :

— لاحكم إلا بعد مرور أسبوع ..

رغم استهتارى توترت أعصابى . فيم تهمنى مسرحية وأنا لا تهمنى الحياة ! . آه ها هو الستار يرفع عن بيتنا . بيتنا دون غيره . هل أراده العجرودى كذلك أو أنه عباس ؟! . الأب والأم والابن . إنه ببساطة ماخور ونادى قمار . يوجد أكثر من الجريمة والخيانة . الأم تبدو عاهرة

بلا ضابط . علاقاتها تتتابع مع المدير والمخرج والناقد وطارق رمضان ! . ذهلت . لحظتها . أنفاسها تتردد فى ثقل وخشونة . إنه الجحيم . استمتعى برأى ابنك فيك . رؤيته تتجلى بوحشية عن أبيه وأمه . من يتصور أن رأسه المتزمت يحوى هذه الخرائب كلها ؟ . إنى سعيد برأيه فى أمه . سعيد باطلاعها على رأيه فيها . المسرحية تنكل بى وتنتقم لى . فى لحظة الفضيحة هذه أنعم بالانتصار على الأم والابن معا . على عدوى اللدودين . ثم إنه لم يفهمنى . إنه يقدمنى كرجل منحل . كرجل واجه تحديات الواقع بالانحراف . لست كذلك يا غبى . لم أستو مركبا لكى أنحل . نشأت بسيطا بدائيا حرا . نشأت شاهدا ومدينا للنفاق . ذاك ما لا يمكن أن تفهمه . وسر نجاحك أنك تتملق النفاق والاستعلاء الكاذب . تلق منى بصقة فى مهجرك الأبدى .

بعد تلاشى عاصفة التصفيق الهستيرى دعينا — اتباعا لتقليد قديم — للاحتفال بالنجاح فى البوفيه .

سألتها همسا :

— نشترك أم نذهب ؟

فقالت بتحد :

— كيف لا نشترك ؟!

تتظاهرين عبثا بالاستهانة . ليس لك جناحان مثلى . تمتمت :

— ما كان ينبغى أن ينتحر ..

فقلت أغيظها :

ـــ أى نهاية تتوقعين لقاتل ؟

ـــ لقد فاز بالعطف ..

دارت الأنخاب . قال سرحان الهلالى :

ـــ لى فراسة لا تخيب ..

فقال سالم العجرودى :

ـــ وحشية بلا شك ولكنها مؤثرة ..

فقال فؤاد شلبى :

ـــ إنها تذكر الجمهور بمعاناته اليومية .. ولكنها متشائمة ..

فتساءل الهلالى ساخرا :

ـــ متشائمة ؟!

ـــ ما كان ينبغى أن ينتحر بعد ما تعلق به أمل الجمهور .

فقال الهلالى :

ـــ ليس انتحارا ولكنه مصير الجيل الجديد فى نضال الإنقاذ !

ـــ سلم الأوغاد .

فقهقه الهلالى قائلا :

ـــ ليحفظ الله الأوغاد .

والتفت المدير نحو طارق رمضان ورفع كأسه قائلا :

ـــ نخب اكتشاف ممثل عظيم فى الخمسين من عمره !

فقال فؤاد شلبى بحماس :

ــ أهم من اكتشاف بئر بترول .

ونظر الهلالى نحونا ولكننى سبقته رافعا كأسى :

ــ نخب المؤلف الغائب !

سرعان ما ارتفعت موجة استحسان . فاضت النشوات على حساب المسرح . اختلط الجد بالهزل . تلذذت بتذكر فصائح كل رجل وكل امرأة . لماذا كان السجن من نصيبنا وحدنا ؟ .. أيها الزملاء الأحرار اشربوا نخبى أنا . فإنى رمزكم الصادق .

وصلنا إلى بيتنا القديم عند الفجر . لم نجد أى رغبة فى النوم . أشعلت فحم المدفأة وجلسنا فى الصالة . البلاط المعصرانى مغطى بكليم أسيوطى قديم . رغم النفور المتبادل شعرنا بالرغبة فى التواجد معا ولو لحين قصير . منذا يبدأ بفتح الحديث ؟ .. ما أشد ما نتبادل من مشاعر الحذر والتوجس .

سألتها :

ــ أعجبتك المسرحية ؟

ــ جدا .. جدا ..

ــ والموضوع ؟

ــ يا له من سؤال سخيف لمن قضى عمرا فى المسرح ..

ــ لم نتظاهر بغير ما فى نفوسنا ؟ .. لا مجال للشك ..

ـــ أرفض هذا التفكير السخيف ..

ـــ كل شيء حقيقى أكثر من الحقيقة ..

ـــ كلام فارغ ، لقد رأيت نفسى فى صورة لا علاقة لها بالواقع .

فضحكت تاركا للضحكة وحدها الإفصاح عن رأيى فقالت باستياء :

ـــ إنه الوهم ..

ـــ ألم نر الجميع على المسرح كما عرفناهم فى الحياة ؟

ـــ المؤلف حر ، يحافظ على من يشاء ويغير من يشاء . وهناك أشياء جديدة تماما ..

ـــ لم صورك فى تلك الصورة ؟

ـــ ذاك شأنه .

ـــ اعتقدت طويلا أنه يحبك ويحترمك ..

فقالت بحدة :

ـــ ذاك ما لا شك فيه ..

ـــ الحقيقة تتجلى فى نظرتك الكلبية !

ـــ إنى واثقة من نفسى ..

قلت باستهانة :

ـــ حتى طارق ! .. ما تصورت أنك حرة لذلك الحد ..

ـــ أرحنى من أفكارك القذرة .

ـــ لولا الكذب لربحنا أضعاف ما ربحنا !

ـــ الحق أنه صورك فى صورة أجمل من حقيقتك وهذا يقطع بأنه

استلهم الخيال قبل كل شيء ..

ضحكت عاليا فهتفت :

ـــ سيسمعك العائدون من صلاة الفجر .

ـــ لم لا ؟ .. ذلك الولد الغريب الذى زج بنا فى السجن .

ـــ كيف تطالب أحدا بالتزام فضيلة أنت الذى لا تؤمن إلا بنزواتك ؟

ـــ ولكنه ادعى المثالية حتى أوجع رأسى ..

فقالت بحماس ظاهر على الأقل :

ـــ إنه ولد رائع .. مؤلف مرموق .. ابنى ..

فقلت ساخرا :

ـــ إنى معجب بوحشيته !

ـــ عندما يعود سأذهب معه هاجرة هذا البيت اللعين !

فقلت ساخرا :

ـــ كل حجرة فيه تشهد لنا بالمجد ..

غادرتنى عند ذاك فلبثت وحدى باسط الذراعين فوق المدفأة . كان يسعدنى بلا شك أن أعرف المزيد عن أبى . أكان من هؤلاء المنافقين ؟ . لقد عاجله الموت فسقطت أمى . ونشأت أنا تلك النشأة المتوجة بقرون الشيطان . أما أنت يا عباس فلغز غامض ! . ما أشد الملل . إنى مثل شيطان حبيس قمقم لا يجد مجالا للعبث ..

* * *

تابعت نجاح المسرحية باهتمام وشغف . توقعت أن يعود المؤلف ولو مع

المسرحية الجديدة . توقعت أيضا أن يغير نجاحه مجرى حياتى المملة . وكنت أتردد على المسرح بين الحين والحين لأتنسم الأخبار عنه . وفيما أنا أقطع المدخل ذات ضحى إذ هرع نحوى عم أحمد برجل ، فمضى بى إلى داخل البوفيه الخالى . أقلقنى وجهه المكفهر المتقبض فاستشففت وراءه خبرا كئيبا . قال :

ــ كرم .. كنت على وشك الذهاب إليك ..

فسألته :

ــ ماذا ؟ .. ماذا عندك ؟

ــ عباس ..

ــ ماذا عنه ؟ ... هات ما عندك يا عم أحمد ..

ــ اختفى من بنسيون كان يقيم فيه فى حلوان تاركا رسالة غريبة ..

ــ أى رسالة .. ألا تريد أن تتكلم ؟

ــ كتب يقول إنه سينتحر !

غاص قلبى . وخفق مثل بقية قلوب البشر . تبادلنا النظر صامتين . سألته :

ــ هل عثر على .. ؟

فأجاب بحزن :

ــ كلا .. البحث جار ..

تمتمت وأنا شارد الوعى :

ــ آه .. ربما .. من يدرى .. ولكنه ما كان يكتب الرسالة لولا ..

فقال عم أحمد بنبرة من يعتبر المسألة منتهية :

ــ ربنا يلطف بكم ..

ــ يجب أن أذهب إلى حلوان ..

ــ لقد سبقك سرحان بك الهلالى ..

رحلة عقيمة وأليمة . لا توجد إلا الرسالة أما عباس فقد اختفى . مضى من الاختفاء الأول إلى الاختفاء الجديد . لن يعترف بانتحاره إلا إذا عثر على الجثة ، ولكن لم يكتب ما كتب إن لم يكن قد عقد العزم حقا على الانتحار ؟

وتساءل الهلالى :

ــ إذا كان يريد الانتحار حقا فلم لم ينتحر فى حجرته ؟

ــ أيداخلك شك فى صدقه ؟

فأجاب ببساطة :

ــ أجل ...

رجعت إلى البيت القديم مساء فلم أجد حليمة . أدركت أنها ذهبت إلى المسرح مستطلعة أسباب تأخرى . أغلقت المقلى الخالية وجلست فى الصالة أنتظر . وبعد مضى ساعة ثقيلة رجعت بعينين مترعتين بالجنون . تبادلنا النظر ثوانى ثم هتفت :

ــ كلا .. لو أراد أن ينتحر لانتحر بالفعل .. لا يمكن أن ينتحر ..

وانحطت على الكنبة وأجهشت فى البكاء وهى تلطم خديها ..

حليمة الكبش

أولد من جديد . من جوف السجن إلى سطح الأرض . ويهل علىّ وجه عباس فأحتويه بين ذراعى ، أدفن وجهى فى صدره مثقلة بالعار والخجل . همست :

ــ شد ما أسأنا إليك ، ليت الموت أراحك منا ..

قال برقة :

ــ ما يسيئنى إلا كلامك ..

ونشجت باكية فقال :

ــ الآن يطيب لنا الشكر .. دعينا نفكر فى المستقبل ..

فقلت بصوت مختنق :

ــ وحيد يا بنى .. ابتلاك الله باسترداد زوجتك وابنك .. ونحن لم نرحمك ..

ــ ما مضى قد مضى ..

لم يكد يتبادل مع أبيه كلمة . جمعتنا صالة البيت القديم كبعض الأوقات الماضية . وراح يقول :

ــ أرجو ألا نعود إلى ذكر الماضى ..

وصمت قليلا ثم قال :

ـــ فكرت فى أشياء .. ولكن هل يود أبى أن يرجع إلى عمله القديم فى المسرح ؟

فقال كرم :

ـــ كلا .. عليهم اللعنة ..

ـــ سأحول المنظرة إلى دكان ، ممكن أن نبيع بعض الأثاث ، ونجعل من المنظرة مقلى ، تجارة يسيرة ومربحة .. ما رأيكما ؟

فقلت بامتنان :

ـــ الرأى ما ترى يا بنى .. أسأل الله أن أسمع عنك خبرا قريبا ..

ـــ بإذن الله .. أشعر بأننى قريب من النجاح ..

فدعوت الله له كثيرا حتى قال وهو ينقل عينيه بيننا :

ـــ المهم أن يحل بينكما التعاون وألا أسمع ما يسيئنى ..

فقلت بلهفة :

ـــ طالما حلمت بأن أعيش معك ..

ـــ إذا أراد الله لى النجاح فسوف يتغير كل شىء ..

وتساءل كرم بجفاء :

ـــ ألا تتفضل بأخذها معك ؟

فقال عباس بحرارة :

ـــ أطالبكما بالتعاون .. سأبذل ما أستطيع لأوفر لكما حياة كريمة

ولكنى أطالبكما بالتعاون ..

أى تعاون ؟! . إنه لا يدرى شيئا . إنه أبرأ من أن يحيط بأسرار القلوب إذا نفثت دخانها . من أين له أن يعلم بما فعل أبوه وهو لم يشهد إلا سطحه الكئيب ؟ . إنه يبذل ما يجود به قلبه البار ولكن هل غاب عنه أنه يجمع بين خصمين فى زنزانة واحدة ؟ . من السجن إلى سجن ، ومن المقت إلى ما هو أشد مقتا . لا أمل لى يا بنى إلا أن تنجح وأن تنتشلنى من زنزانتى البغيضة .

* * *

أسترق إليه النظر وهو يعمل . يبيع الفول السودانى واللب والفشار والحمص ويرمى بالقروش فى درج نصف مفتوح . بعد إدمان طويل للرزق الحرام الغزير . لا شك أنه يحلم بالمخدر القاتل الذى شفاه السجن منه على رغمه . لولا أن عباس اشترط عليه أن نتقاسم الربح لبادرنا الخراب من جديد . دائما مكفهر الوجه لا يزيح قناع الأسى عن وجهه إلا فى حضرة الزبائن . تمادى فى العمر أكثر من الواقع بعشر سنوات وهذا يعنى أننى تماديت أيضا . أيام السجن الحزينة . وليلة الكبسة التى استبقت فيها أيدى المخبرين بلطم وجهى .. آه .. الأوغاد .. لم يزرنا منهم أحد . الهلالى وغد مثل طارق رمضان . حجزوا فى القسم ليلة ثم أطلق سراحهم وحملنا الوزر وحدنا . حتى جيراننا يقولون إن القانون لا يصول ويجول إلا مع المساكين . يعزوننا ويشمتون بنا ولكنهم يتعاملون

معنا . لا أمل لى يا بنى إلا أن تنجح . يمر الوقت دون أن نتبادل كلمة . حرارة المقت أقوى من موقد الفرن . وكم أشعر بالتعاسة وأنا أنظف البيت القديم الكريه أو وأنا أعد الطعام . كيف قضى على بهذه الحياة ؟ . كنت جميلة ومثالا فى التقوى والأدب . الحظ .. الحظ .. منذا يدلنى على معنى الحظ ؟ . ولكن الله مع الصابرين . وسوف يقول الحظ كلمته الأخيرة على يدك يا عباس . ولن أنسى زيارتك لنا ليلة مولد سيدى الشعرانى وقولك المفرج للكرب المفتح لأبواب السماء :

ـــ أخيرا قبلت مسرحيتى ...

لقد انطلقت من صدرى ضحكة كاللؤلؤة ، لم تترنم فيه منذ الشباب الأول . حتى أبوه تهلل وجهه . ما دخله فى الأمر .. لا أدرى . لقد كرهته كما كرهنى حسن .. ها هو يستوى مؤلفا لا خرافة كما توهمت . طالما عددت مثاليته سفاهة ولكن الخير ينتصر ، ويجرف تياره المتدفق زبد السفلة من أمثالك .

* * *

لا أحب الخريف لولا أنه يقربنا من ليلة الافتتاح . من أين تجىء هذه السحب التى تحجب النور ؟ . ألاتكفينى السحب التى سبح فيها قلبى ؟ . وجاءنى صوت الرجل قائلا :

ـــ انظرى ..

رأيت طارق رمضان مقبلا كحادثة سيئة من حوادث الطريق .

تساءلت :

ــ للتهنئة أم للشماتة ؟

وقف قبالتنا يلقى بسلامه فى فراغ . قلت :

ــ أول زيارة من أهل الوفاء.

و لم ألق بالا إلى اعتذارته حتى سمعته يقول :

ــ معى أخبار سيئة !

فقلت بتحد :

ــ لا تهمنا الأخبار السيئة ..

ــ حتى لو تكون عن الأستاذ عباس يونس ؟!

هرب دمى . تماسكت ما وسعنى التماسك . قلت بزهو :

ــ قد قبلت مسرحيته ..

ــ ما هى إلا نكتة مبكية ، ماذا تدرين عن المسرحية ؟

وراح يسوق العجائب من خلال تلخيصه ويختم قائلا :

ــ كل شىء .. كل شىء ..

دار رأسى . تساءلت وأنا أدارى رعبى :

ــ ماذا تعنى يا عدو عباس ؟

ــ شاهدا المسرحية بنفسكما .

ــ أعماك الحقد .

ــ بل الجريمة .

ــ ما مجرم إلا أنت ..

ــ يجب القبض على قاتل تحية ..

ــ إنك مجرم خسيس وعليك أن تذهب ..

فضحك ساخرا وتساءل :

ــ كيف يقولون إن السجن تأديب وإصلاح ؟ .

كبشت كبشة حمص ورميته بها فتراجع هازئا . ثم ذهب .

ماذا كتب عباس ؟ . ماذا فعل ؟ . ابنى لا يقتل ولا يخون . لا يخون أمه على الأقل . إنه ملاك .

تبادلت مع الرجل نظرة . يجب أن أخرج من وحدتى الأبدية . قلت :

ــ إنه يكذب .

ــ ولم يكذب ؟

ــ ما زال يحقد على ابنى .

ــ ولكن توجد مسرحية .

ــ اذهب إلى عباس ..

ــ سأقابله حتما .

ــ ولكنك لا تتحرك .

ــ لا داعى للعجلة .

فحنقت عليه .. إنه مثل طارق لا يحب عباس . هتفت :

ـــ يجب أن يعرف ما يدبر من وراء ظهره .

ـــ وإذا اعترف ؟

ـــ ستجد التفسير لكل شيء .

ـــ لا أدرى .

ـــ القاتل الحقيقى لا يفضح نفسه ..

ـــ لا أدرى .

ـــ تحرك .

ـــ سأذهب طبعا .

ـــ أو أذهب أنا .

ـــ ليس عندك ملابس لائقة .

ـــ إذن فعليك أن تذهب أنت .

ـــ الوغد يكذب .

ـــ يجب أن تسمع بأذنك .

ولكنه تراجع قائلا :

ـــ كره حياتنا .. كان مثاليا كأنه ابن حرام .. ولكنه لا يغدر بنا .. ثم لماذا يقتل تحية ؟

ـــ إنك تستجوبنى أنا .

ـــ إنى أفكر .

ـــ لقد صدقت ما قال الوغد .

ـــ وأنت أيضا تصدقينه .

كدت أبكى ولكننى أطبقت على شفتى وقلت :

ـــ يجب أن نسمعه .

ـــ الحق أننى لا أصدق .

ـــ إنك تهذى ..

ـــ اللعنة ..

ـــ اللعنة حلت يوم ارتبطت بك .

ـــ ويوم ارتبطت بك .

فقلت بتحد :

ـــ كنت جميلة .. إنه سوء الحظ ..

ـــ كان أبوك ساعى بريد أما أبى فكان موظفا فى دائرة الشمشرجى .

ـــ ذلك يعنى أنه كان خادما .

ـــ أنا من أسرة ..

ـــ وأمك ؟

ـــ مثلك تماما .

ـــ مخرف .. ولكنك لا تريد أن تذهب ..

ـــ سأذهب عندما يروق لى ..

ثم غير نبرته قائلا :

ـــ العصر أنسب وقت لوجوده فى بيته ..

سكت منادية الصبر المر . الشك يقتلنى من جذورى . ماذا يقال عن أشرف الناس ؟ . الوردة النابتة فى خرابة . فى بلد اللصوص والضحايا . ابتاع لى قماشا لثوب يصلح للخروج ولكنى تقاعدت عن تفصيله . سأشرع من فورى فى تفصيله وحياكته . يعيرنى بأصلى ابن العاهرة.أما عباس فلا يمكن أن يخون أمه . احتقر كل شيء إلا حبى . الحب أقوى من الشر نفسه ..

* * *

بيت الهنا بالطمبكشية . الشمس لا تغيب حتى فى الشتاء والليل . حليمة الجميلة بنت الجميلة . أبى يرجع حاملا شيئا طيبا تحبه الأنفس . وتقول أمى لأبى :

ــ دعها تستمر .. التعليم فرصة العمر .. ليتنى وجدت فرصتى ..

ويقول قريبنا الطيب عم أحمد برجل :

ــ أصبحت البنت يتيمة .. الاستمرار فى التعليم مشقة ..

فتسأله أمى :

ــ وما العمل يا عم أحمد ؟

ــ معها شهادة .. وهى ذكية .. يلزمها عمل .. ستخلو عندنا وظيفة قاطعة التذاكر .

وتسألنى أمى :

ــ هل تحسنين عملا كهذا ؟

فأقول بلهفة :

ــ التمرين يكمل ما ينقصنى .

ويقول عم أحمد :

ــ الشمشرجى صديق الهلالى بك .. تشفعى به عنده وسأكلمه من ناحيتى .

ها هى الدنيا تتفتح عن تجربة جديدة . هكذا أدخل المسرح لأول مرة . مكان فخم ذو رائحة خاصة مؤثرة . عم أحمد يتضاءل ويلعب فيه دورا صغيرا . أدعى إلى مقابلة المدير . أدلف إليه فى معبده الضخم بثوبى الأبيض البسيط وحذائى القديم . بهيكله العالى وعينيه الحادتين ونظرته المجتاحة يبدو كائنا رائعا شديد التأثير . تفحصنى حتى ذبت . يقدم لى فرخ ورق ليمتحن سرعة كتابتى للأرقام .

يقول بصوته الجهير :

ــ يلزمك تدريب قبل تسلم العمل يا ..

أقول بحياء :

ــ حليمة الكبش ..

يبتسم معلقا :

ــ الكبش ؟! .. ما علينا .. وجهك مقبول أكثر من وجوه ممثلات فرقتنا .. أريد أن أمتحنك عند انتهاء التدريب ..

أجتهد بحماس واثق . لا غيرة على مستقبلى . ولكن إرضاء لذلك

الساحر الرائع . وأقول لأمى فتقول هكذا يكونون أولاد الأصول . أتخيل رضاه مثل نعمة مباركة . وأمثل بين يديه مضطربة الأنفاس . أنت تعويذة الفرقة يا حليمة . الله جميل يحب الجمال . متى بدأ مداعباته اللمسية ؟ . كان شعاع الشمس النافذ من الزجاج يغمر وجهى وثمة مزمار بلدى فى الطريق يعزف راقصا . وأدفع يده المترامية لاهثة . لا يا سعادة البيك أنا بنت شريفة . تجلجل ضحكته فى أذنى . يتلاشى احتجاجى فى صمت الحجرة المغلقة الواسعة . عاصفة من الأنفاس الحارة والتسلل الماكر تشوش إرادتى الصادقة . إنه الكابوس الذى ينقشع عن دموع لا تستدر عطفا . خارج الحجرة أحياء يذهبون ويجيئون . وتموت أمى قبل أن تعلم ..

* * *

تحرك أخيرا عند العصر . خف توتر أعصابى . إنى أتعلق بقشة ولكن ماذا أنتظر ؟ . على أن أعد الثوب لأستطيع الحركة . إنه يبوح بسره لى لا للرجل الكريه . ماذا يبقى لى الآن سوى عباس ؟

* * *

الخيبة تجئ مع الأفيون . لا .. إنها أقدم من الأفيون . ما أعذب ما دفنت من آمال . يرشف آخر رشفة فى الكأس ، يبتسم ابتسامة مخمورة ، يشير إلى الحجرة الملاصقة للمنظرة ويقول :

ــ فى هذه الحجرة كانت أمى تخلو إلى الباشجاويش !

أذهل من هول المكاشفة . عباس نائم فى لفافة المهد . أقول غير مصدقة أذنى .

ـ سكرت يا كرم ..

يهز رأسه قائلا :

ـ كانت تحذرنى من مغادرة حجرتى ..

ـ ما كان يجوز ..

ويقاطعنى :

ـ لا أحب النفاق .. أنت منافقة يا حليمة ..

ـ الله يغفر لها .. ألا زلت تحقد عليها ؟

ـ و لم أحقد عليها ؟

ـ إنى لا أفهمك .

ـ زوجك رجل لا مثيل له بين الرجال .. لا يؤمن بأى أكذوبة بشرية ..

ماذا يعنى ؟ . إنه زوج لا بأس به لكنه يسخر من كل شىء . من إيمانى يسخر .. من مقدساتى وتقاليدى .. ماذا يحترم ذلك الرجل ؟ . ها هو يهتك أمه دون مبالاة . أقول له :

ـ أنت مرعب يا كرم ..

فيقول باستهانة :

ـ ذلك من حسن حظنا وإلا لطلقتك ليلة الدخلة ..

انغرز دبوس محمى فى قلبى .دمعت عيناى . تلقيت ثانى ضربة قاسية فى حياتى . يقول :

ـــ معذرة يا حليمة ، متى تصيرين حرة ؟

ـــ أنت قاس وشرير ..

ـــ لا تهتمى بهذه الكلمات التى لا معنى لها .

ويحدثنى عن عشق أمه الجنونى للشرطى ، عن إهمالها له ، كيف نشأ حرا بفضل ذلك الإهمال الداعر .

ويقول بنبرة مخمورة :

ـــ إنى مدين لها بكل شىء ..

إنه يطوقنى كشىء مرعب . إنى أعاشر قوة غير منتمية لأى قاعدة . على أى أساس أتعامل معه ؟ . الخيبة أقدم من الأفيون . الأفيون لم يجد روحا ليقضى عليها ..

* * *

لمحته راجعا فوثب قلبى رغم النفور . بدا فى الطريق أطعن فى السن مما يكون فى المقلى . اتخذ مجلسه دون أن ينظر نحوى . سألته :

ـــ ماذا قال لك ؟

فقال ببرود :

ـــ غادر شقته حاملا حقيبته إلى مكان مجهول ..

يا للعذاب والرعب . متى يكف الحظ عن التنكيل بى ؟

ــ لِم لَم يخبرنا ؟

ــ إنه لا يفكر فينا ..

أشرب إلى أنحاء المقلى قائلة :

ــ أحسن إلينا بوفاء لا نستحقه .

ــ يريد بعد ذلك أن ينسانا .

ــ كان عليك أن تذهب إلى الهلالى ..

رمقنى بازدراء وكراهية فقلت بتحد :

ــ إنك لم تحسن التصرف .

ــ أود أن أكسر رأسك .

ــ كأنك رجعت إلى الأفيون .

ــ لا يقدر عليه اليوم إلا الوزراء .

وإذا به يقول مخفضا درجة صوته :

ــ الهلالى لا يدرى شيئا عن مكانه .

فسألته بلهفة :

ــ زرته ؟

ــ لا يدرى شيئا عن مكانه .

ــ رباه .. هل أخلى شقته ؟

ــ لا .

ــ لعل فى الأمر امرأة .

ـــ تفكير سليم من وجهة نظر امرأة مثلك ..

ـــ ماذا يمكن أن أقول لمثلك ؟ .. ثم إن أمره لا يهمك ألبتة .

وغلبنى البؤس فبكيت من أعماق ..

* * *

ذهبت مرتدية ثوبى الجديد متلفعة بشال قديم . لم أحمل معى أملا وتوكد هناك يأسى . قلت للبواب :

ـــ عندك معلومات ولا شك ؟

ـــ أبدا .

لم أجد شجاعة للذهاب إلى المسرح . رجعت كارهة . زرت سيدى الشعرانى واستغثت بكراماته . مضيت إلى الزنزانة لأجد الرجل يضاحك زبونا وهو ناعم البال . جلست منهزمة حانقة . ونفد صبرى فقلت :

ـــ افعل شيئا ، أليس عندك حيلة ؟

ـــ أود أن أقتلك ، سأقتلك ذات يوم ..

ـــ زيارة جديدة للمدير ..

فقاطعنى :

اذهبى إليه أنت فهو يخص جواريه بعنايته ..

ـــ الحق أننى ضحية أمك ، مارست تعذيبى من وراء قبرها ، هى التى خلقت منك هذا الوحش !

ـــ إنها تعتبر بالقياس إليك سيدة عفيفة !

* * *

هذا المسرح يشهد عذابى وحبى . شهد أيضا اغتصابى و لم يمد لى يدا . تحت قبته العالية تدوى شعارات الخير فى أعذب بيان وتسفح على مقاعده الوثيرة الدماء، وأنا ضائعة .. ضائعة .. محتقنة بسرى . وهو لا يدرى بحبى ولا يهمه شىء . لعله نسى اسمى أيضا :

ـــ إنك تتجنبنى .. شقيت حتى قابلتك ..

ـــ هل ينقصك شىء ؟

ـــ ماذا ؟ .. أنسيت ؟ .. لقد فقدت كل شىء ..

ـــ لا أحب المغالاة .. لم يحدث شىء ذو بال ..

طفرت الدموع من عينى .

ـــ لا .. لا .. لا يجوز أن يلاحظ شىء فى المسرح ..

ـــ ولكننى .. ألا تدرك حالى ؟ .. لا تتركنى ..

ـــ الأمر أبسط مما تتخيلين .. لم يحدث شىء ضار ألبتة .. احتفظى بصفاء ذهنك من أجل عملك ومستقبلك ، وانسى ما كان فلا فائدة ترجى من تذكره ..

إنه الصوان . أمقته بقدر ما أحبه . مهجورة وحيدة معذبة . ستخمن خالتى سر عذابى ذات يوم . ماذا أرجو من دنيا لا يعبد فيها الله ؟!

* * *

عند الأصيل ذهبت إلى مقهى الفن . رأيت فؤاد شلبى يدخن الشيشة فقصدته . لم يتوقع حضورى بحال فقام مرحبا وأجلسنى وهو يقول :

ــ كان يجب أن أزوركم ، اللعنة على الشواغل !

فقلت دون مبالاة :

ــ لم يزرنا أحد ، لا أهمية لذلك ، إنما جئتك مدفوعة بالقلق لاختفاء عباس ..

فابتسم وقال :

ــ لاداعى للقلق ، الأمر واضح ، لقد هرب من المتطفلين وخيرا فعل ، ولا شك أنه يعد مسرحيته التالية ..

ــ أما كان يجب أن يخبرنى ؟

ــ اغفرى له خطأه ، لا تقلقى ، ما زلت جميلة كما كنت يا حليمة ، كيف حال كرم ؟

ــ حى يمارس هوايته فى إتعاس البشر ..

فضحك ، وظلت ضحكته تثير أعصابى حتى غادرت المقهى . وجدت الشجاعة والتصميم هذه المرة للذهاب إلى المسرح . طلبت مقابلة المدير . دخلت الحجرة . الحجرة نفسها . الكنبة الجلدية نفسها . الرجل نفسه . لا .. إنه رجل آخر . لم يبق من الآخر إلا نذالته . إدمان الشهوات كبره أكثر مما كبرنا السجن . أيهما المسئول

أكثر عن تعاستى ؟ . وقف مرحبا .. هتف :

ــ أهلا .. أهلا .. يسعدنى أن أراك بخير ..

فتساءلت بسخرية وأنا أجلس :

ــ بخير ؟!

ــ كما يجدر بأم مؤلف ناجح !

ــ إنه سر عذابى الراهن !

ــ يا له من عذاب لا أساس له ، عندى خبر سار ، لقد اتصل بى تليفونيا ..

قاطعته بفرحة مشتعلة :

ــ أين هو ؟

ــ لا أدرى .. إنه سره فليحتفظ به كيف شاء ، المهم أنه مكب على تأليف مسرحية جديدة ..

ــ هل ترك عمله ؟

ــ نعم .. إنها مجازفة ، ولكنه واثق من نفسه وأنا واثق ؟ ..

ــ لم يكلف خاطره بالاتصال بى ؟

ــ يتجنب أن يستجوبه أحد عن مسرحيته .. هذا ما أتصوره ..

ــ لقد قالوا وعادوا .. ما رأيك أنت ؟

ــ المسرحية فن ، والفن خيال مهما استمد من الحقائق !

ــ ولكن ظنون الناس ... ؟

ــ الجمهور لن يرى شيئا من ذلك كله .. إنه سخف ، ولولا حماقة طارق ..

فقاطعته :

ــ إنه عدوه عليه اللعنة ..

ــ أطالبك الآن بأن تقرى عينا ..

* * *

ــ بلغنى أن كرم يونس يطلب يدك ؟

ــ أجل .

ــ ممكن إصلاح الأمر ..

ــ لا .. أرفض هذا النوع من الكذب .

ــ ستصارحينه ؟

ــ أعتقد ذلك .

ــ يا لك من فتاة استثنائية فى هذا الزمن المغمور بالسفلة ، هل تكاشفينه بالفاعل ؟

ــ لا أهمية لذلك ..

ــ الأفضل ألا تفعلى ..

* * *

مضيت إلى البوفيه . صاح أحمد برجل عند رؤيتى :

ــ خطوة عزيزة ..

جلست أمامه صامتة . راح يعد لى السندوتش والشاى . هنا أنا من أهل الأرض شخصان ، أحمد برجل وأم هانى . غمرتنى ذكريات المكان . الشاى والسندوتش والغزل . والمزمار الراقص فى الجحيم . مثل قطرات مطر صافية أصابت مزبلة . وقال عم أحمد :

ـــ نجاح عباس حظ طيب وبشير بالعزاء عما سلف .

فقلت بأسى :

ـــ لكنه هجرنا بلا كلمة طيبة ..

ـــ لا تقلقى ، لا يقلق أحد ممن حولنا لذلك ..

ـــ وطارق رمضان ؟!

ـــ إنه نصف مجنون !

* * *

التجربة عنيفة وجديدة . ثمة تصميم على الاعتراف وخوف يخرسنى فى آخر لحظة . إنى شريفة وطاهرة وأكره الخداع ولكن الخوف يخرسنى . يبدو لى كرم مثالا للجدية والحب ، فهل أفقده ؟ . وخرست حتى أغلق علينا بابنا . هالنى عارية متوترة مستخذية بينى وبينه . همست :

ضعفى فبكيت . انتصبت الحقيقة عارية متوترة مستخذية بينى وبينه . همست :

ـــ أنى مجرمة .. عجزت عن أن أخبرك من قبل ..

تحيرت فى مقلتيه نظرة ساهمة . ما أخشاه يقع . قلت :

ـــ خفت أن أفقدك ، وصدقنى لقد اغتصبت اغتصابا ..

وأخفيت عينى فى الأرض وانفعالاته تلفحنى . وقلت كلاما وقال

كلاما وضاع الكلام فى وقدة الألم . لكن صوته حفر فى وعيى وهو يقول :

ـــ لا يهمنى الماضى ..

ازددت بكاء ولكن بهرنى شروق غير متوقع . قلت إنه شهم وإننى سأكرس نفسى لإسعاده . وهمست وأنا أجفف عينى :

ـــ ما أسهل أن يضيع الأبرياء ..

* * *

ما أضيق صدرى وأنا راجعة إليك . دخلت الزنزانة وجلست . سأقول كلمة عن لقاء فؤاد شلبى ولن أزيد . لن أريحه . إنه لا يحب عباس . يتظاهر بعدم الاهتمام . ليته يتعذب كما أتعذب . نحن نبيع التسلية أما تسليتنا الوحيدة فهى تبادل السباب .

* * *

فى الخيبة أمضى درجة بعد درجة . لكن الشر الجديد يهدد أساس البيت .

ـــ الأفيون مخيف جدا ، إنه يلتهمك !

ـــ شكرا له على أى حال .

ـــ إنك تنسحب من دنيانا بسرعة مزعجة .

ـــ أكرر له الشكر !

ـــ إنى أبذل أقصى ما فى جهدى ، وهناك عباس وهو حبيبك .

مضى يرشف من قدح الشاى الأسود غائبا عنى .

ــ مرتبى لا يكفى وحده للإنفاق على البيت ..

ــ عندك إيجار حجرة رمضان ..

ــ ولا هذا يكفى ، الدنيا نار ..

إنى الآن أعرفك ولذلك أخشاك . لست كما تصورتك فى أيامنا الأولى . ها أنت تفقد كل شىء حتى قدرتك التى تباهيت بها . استقل كل منا بحجرة خاصة . لا حب وأيضا لا طعام ؟! . أنت أنت الباقى يا عباس . لا تحفظ كلام بابا .. لا تصدقه فإنه مريض . من حسن الحظ أنك غالبا وحدك . الله معك . فيه الكفاية . كن ملاكا . ليكن صديقك المدرس والكتاب والمسرح . كن ابنى وابن الآخرين الطيبين . إنك النور الوحيد فى هذا البيت القديم الغارق فى الظلام . كن وحيدا فى كل شىء ..

* * *

يسترق إلى النظر أحيانا لعلى أبوح له بما لدى . هيهات.أتحداك أن تكرهنى أكثر . تساءل :

ــ عندما يجىء الشتاء فكيف نحتمل البقاء فى هذه المقلى المفتوحة ؟

فقلت بثقة :

ــ عندما ينجح عباس يتغير المصير كله ..

فرد بمرارة :

ـــ عندما ينجح عباس !

فقلت بتحد :

ـــ سأذهب معه ولن يضن عليك بمعطف أو عباءة ..

* * *

البوفيه الأحمر باق كما كان ، يضحك من تغير رواده . سمع الكثير مما يقال ولا يصدق أحدا . يقول لى عم أحمد برجل :

ـــ هاك السندوتش وسأعد لك الشاى ..

ويجىء فيجلس على المقعد إلى جانبى شاب فيطلب أيضا الفول والسندوتش . إنه من أهل المسرح فيما يبدو ولكنه ليس من الممثلين . شاب مقبول المنظر كبير الرأس والأنف . ويسألنى عم أحمد :

ـــ هل من جديد عن الشقة يا آنسة حليمة ؟

فأجيبه بشىء من التكلف أمام الغريب :

ـــ البحث عن الذهب أسهل ..

وإذا بالشاب يسألنى :

ـــ هل تبحثين عن شقة ؟

فأجبت بالإيجاب وعارف عم أحمد بيننا فراح يسأل بجرأة .

ـــ من أجل زواج ؟

آه .. بدأ الغزل . إنه يبدأ بسرعة فى هذا المسرح . ولا يتردد عن استعمال العنف . وتقتل الفريسة على أنغام المزمار البلدى .

ــ عندى بيت قديم مكون من طابقين .

ــ الطابق شقة ؟

ــ كلا .. إنه ليس مقسما إلى شقق .

عم أحمد يسأله إن كان ممكنا أن أستقل بطابق فيجيب بالإيجاب . سألته :

ــ ألا يضايق ذاك الأسرة ؟

فأجاب بجرأته المعهودة :

ــ إنى أقيم فيه وحدى ..

أعرضت عنه فى استياء فقال بلباقة :

ــ ستجدين الطابق آمنا أنت وأسرتك ..

شكرته وصمت . لم يترك أثرا سيئا فى نفسى . ماذا يريد ؟ . لا علم له بمأساتى . ولا بحبى . ولا بسوء ظنى .

* * *

قلت أذهب إلى أم هانى بشقتها الصغيرة بالإمام حيث يقيم معها طارق رمضان . استقبلتنى بحرارة . وكان علىّ أن أنتظر حتى يستيقظ طارق من نومه . خرج من حجرته منفوش الشعر مثل شيطان وهو يقول بسخرية لا تناسب المقام :

ــ خطوة عزيزة .

فقلت له دون لف أو دوران :

— أعتقد أنك زرت عباس قبل رحيله ؟

— حصل ..

— لا أستبعد أنك أسمعته ما حمله على الرحيل ..

فقال بقحة :

— لقد شعر بالحصار فهرب .

فغضبت حتى طفرت الدموع من عينى فصاحت أم هانى :

— ألا يعرف قلبك الرحمة ؟! ، ما هذا الذى يقال ؟ ، لقد شهدت وفاة تحية ، وشهدت حزن عباس الجنونى !

دهشت وأنا أتلقى هذه الحقيقة وسألتها :

— هل يتفق ما شاهدته مع ما يقال ؟

— كلام فارغ ..

فقال طارق :

— ما كان له أن يقتلها أمامك يا حمقاء .

— الحماقة أن تتصور عباس قاتلا ..

— اعترافه يتجسد على المسرح ليلة بعد أخرى ..

فقالت أم هانى :

— بفضله صرت ممثلا يصفق له الجمهور أكثر من إسماعيل نفسه .

— بفضل جريمته .. جريمته التى حملته على الهرب ..

فقلت بإصرار :

ـــ إنه يقيم فى مكان هادئ ليتم مسرحيته الجديدة .

فقهقه ساخرا وهو يقول :

ـــ مسرحيته الجديدة ! .. لا تحلمى يا أم عباس !

* * *

آه .. فى تلك الأيام كان معقولا ومقبولا رغم كل شىء .

ـــ ما رأيك يا حليمة .. طارق رمضان يرغب فى استئجار حجرة عندنا .. ؟

فقلت محتجة :

ـــ لا .. لا .. فليبق فى مسكنه ..

ـــ تشاجر مع أم هانى فاضطر إلى مغادرة البيت .. إنه يهيم بلا مأوى والغلاء يرتفع يوما بعد يوم ..

ـــ إنه لأمر كريه أن يقيم غريبٌ بيننا ..

ـــ إنه فى حاجة إلينا ونحن أيضا فى حاجة إلى نقود .

ـــ إنه أشبه بالمتشردين ..

ـــ إنه طامع فى كرمنا ، فى كرمك أنت خاصة .. عندنا من الحجرات الخالية ما يكفى جيشا !

وأذعنت كارهة . لم أحترمه قط . ممثل فاشل ويعيش بعرق النساء . ولكننى لم أتصور أن يفعل بنا ما فعل .

* * *

ما ندرى إلا وأم هانى تزورنا فى المقلى . زارتنا فى اليوم التالى لزيارتى لها . واضح أنها تريد أن تعتذر بالزيارة عن سوء معاملة رجلها لى . إنها فى الخمسين مثل طارق ولكنها بدينة ولا تخلو من حسن وحالتها المالية طيبة . قالت :

ـــ إنهم يتحدثون عن نجاح المسرحية .. لم تنجح بهذا القدر مسرحية من قبل ..

فقلت بأسى :

ـــ ولكن المؤلف لا يريد أن يظهر ..

ـــ سيجىء عندما يفرغ من مسرحيته الجديدة ..

وصمتت المرأة قليلا ثم استطردت :

ـــ ما أسخف ما يقال .. ولكن طارق مجنون .. !

فتساءل كرم ساخرا :

ـــ ألم يكن من الأفضل أن يقتل أمه ؟!

كنت أميل إلى أم هانى ، ولم ينتقص من ميلى لها أنها قريبة زوجى ..

* * *

بيت الطمبكشية المكتظ بسكانه. مثل الباص تفوح منه رائحة المطاط . خالتى تخلى ركنا لتستقبل فيه عم أحمد برجل . تقول له :

ـــ لا تنس التموين فاعتمادنا بعد الله عليك .

فيقول الرجل باهتمام غير عادى :

ـــ جئت لما هو أهم !

ـــ افتح الجراب يا حاوى .

ـــ الأمر يتعلق بحليمة ..

رددت خالتى عينيها بينه وبينى فتصاعد الدم إلى خدى . تساءلت :

ـــ هه .. عريس ؟!

ـــ صدق التخمين !

تطلعت إليه متسائلة فقال :

ـــ كرم يونس .

فتساءلت خالتى :

ـــ ومن كرم يونس ؟

ـــ ملقن الفرقة .

ـــ ما معنى هذا ؟

ـــ موظف محترم بالمسرح .

ـــ تراه لائقا يا عم أحمد ؟

ـــ أعتقد ذلك ، ولكن المهم هو رأى العروس ..

ـــ العروس قمر كما ترى . ولكننا فقراء يا عم أحمد .

وجاء دورى للكلام . كنت كسيرة الفؤاد ، أنطوى على سر دام . لا أحب العريس ولكننى لا أنفر منه . شاب مقبول ولعله يهبنى راحة البال وربما السعادة . قلت محاصرة بنظرات خالتى : لا أعرف عنه شيئا

ذا بال ..

ــ موظف ، يملك مسكنا ، ويشهدون له بالطيبة .

قالت خالتى :

ــ على خيرة الله ..

إنها تحبنى ولكنها ترحب بالتخلص منى . أنا كذلك أود النجاة من البيت المكتظ . وسرحان الهلالى وغد لا أمل فيه ..

* * *

ــ الحياة لا تطاق والجوع يتهددنا ..

رمقنى بسخرية وقال :

ــ وجدت الحل الذى يخرسك ..

ــ هل تحررت أخيرا من المخدر الجهنمى ؟

ــ وافق الهلالى على أن يسهر هو وشلته فى بيتنا القديم !

لم أدرك مراده فقال :

ــ سنعد لهم حجرة للعب الورق وسوف يدر ذلك علينا رزقا سخيا ..

فتساءلت فى ذهول :

ــ نادى قمار ؟

ــ عندك دائما أبشع الأوصاف .. ما هو إلا ملتقى للأصدقاء .

ــ ولكن ..

فقاطعنى :

ــ ألا تريدين حياة طيبة ؟ ..

ــ ونظيفة أيضا !

ــ ما دامت طيبة فهى نظيفة .. لا قذر إلا النفاق ..

فتمتمت بقلق :

ــ وهنالك عباس أيضا ؟

فصاح بغضب :

ــ أنا صاحب البيت لا عباس .. ابنك مجنون .. ولكن يهمك ولا شك أن يجد الغذاء والكساء ..

* * *

كثيرا ما تختفى الشمس فى هذا الخريف وتغشى قلبى كآبة ثقيلة . ويستقبل الطريق الضيق كل يوم جنازة أو أكثر فيمضى بها إلى سيدى الشعرانى . والرجل كلما خلا من الزبائن راح يحدث نفسه . إنى أحلم بأمل يعدنى به عباس ولكنه لا يجد ما يحلم به .

* * *

لم لا نسجل اللحظات السعيدة لنصدقها فيما بعد ؟ . أكان هو الرحل نفسه ؟ أكان صادقا حقا ؟ .

ــ إنى مدين لعم أحمد برجل بسعادة فوق احتمال البشر .

حركت رأسى بدلال وقلت :

— لا تبالغ !

فقال بصوت اضمحلت صفاته إلى الأبد :

— حليمة .. ما أسعد من لا يضيع خفقان قلبه فى العدم !

ورغم أنى لا أحبه فقد أحببت كلماته ودفئت بحرارته ..

* * *

جاء اليوم الموعود . قلبى يموج بالفرح والخوف . ذهبت إلى الحمام الهندى . أمدتنى أم هانى بفستان ومعطف وحذاء. رجعت من الكوافير بهالة جديدة من شعر طال إهماله . رمقنى الرجل بسخرية وقال : ما زال لديك بقية من استعداد للدعارة فلم لا تستثمرينها فى هذه الأيام الداعرة المجيدة ؟

صممت على ألا أكدر صفو الليلة بأى ثمن . ذهبنا إلى المسرح استقبلنا كما ينبغى لنا . رمقنى سرحان الهلالى بإعجاب . قلت :

— ولكنى لا أرى المؤلف .

فقال باسما :

— لم يحضر ولكنى أخبرتك بما فيه الكفاية .

تبدد الأمل الأول . انطفأ الشعاع الباطنى المجدد لشبابى . ذهبنا لزيارة عم أحمد . كالعادة القديمة قدم لنا الشاى والساندوتش . تمتم ضاحكا :

— مثل الأيام الماضية ..

عم تتحدث يا عم أحمد . ليت ما كان لم يكن . حتى الثمرة الوحيدة المعزية غائبة . بوجودى فى المكان توترت أعصابى وازددت حزنا . وفى الوقت المناسب دخلنا المسرح . انشرح صدرى فجأة بامتلاء المسرح وقلت :

— هو النجاح ..

لم أسمع تعليقه . سرعان ما رأيت البيت القديم ترفع عنه الستار . تتابعت الأحداث.تجسدت أمام عينى عذابات حياتى . تجسدت بعد أن لم يبق منها إلا رواسب الأنين . وجدتنى مرة أخرى فى الجحيم . وأدنت نفسى كما لم أدنها من قبل . قلت هنا كان على أن أهجره . هنا كان يجب أن أرفض . لم أعد كما كنت فى ظنى الضحية . ولكن ما هذا الطوفان من الجرائم التى لم يدر بها أحد ؟ . وما هذه الصورة الغريبة التى يصورنى فيها ؟ . أهذا حقا هو رأيه فى ؟ . ما هذا يا بنى ؟ إنك تجهل أمك أكثر مما يجهلها أبوك وتظلمها أكثر منه . وهل اعترضت على زواجك من تحية بدافع الأنانية والغيرة ؟ . أى غيرة وأى أنانية ؟ . لا .. لا .. إنه الجحيم نفسه . إنك تكاد تجعل من أبيك ضحية لى . أبوك لم يكن ضحية لشىء سوى أمه . هذه صورة جدتك لا أمك . ترانى عاهرة محترفة وقوادة ؟ . ترانى القوادة التى ساقت زوجتك إلى السائح طمعا فى نقوده ؟ . أهو خيال أم هو الجحيم ؟ . إنك تقتلنى يا عباس . لقد جعلت منى شيطان مسرحيتك . والناس يصفقون .. الناس

يصفقون ! .

كنت ميتة تماما وأنا أدعى لحفل البوفيه . سألنى الرجل :

ـــ نشترك أم نذهب ؟

يتحدانى ويسخر منى ، ولكنى قلت له بتحد :

ـــ كيف لا نشترك ؟!

لكننى فى الواقع لم أشترك . انغمست فى غيبوبة محترقة . دوى رأسى بأصوات متلاطمة . تماوجت أمام عينى وجوه غريبة تصرخ وتضحك بلا سبب . سينفجر رأسى وتقوم القيامة . لتقم القيامة . لتقم القيامة . لن يدركنى حكم عادل إلا بين يدى الله . قتلت وخنت وانتحرت فمتى أراك ؟ .. هل يتأتى لى أن أراك ؟ .

وصلنا البيت القديم عند الفجر . تهالكت فوق الكنبة فى الصالة على حين راح يشعل المدفأة . جاءنى صوته متسائلا :

ـــ أعجبتك المسرحية ؟

فقلت بفتور :

ـــ أعجبت الجميع !

ـــ والموضوع ؟

ـــ موضوع قوى !

ـــ لم نتظاهر بغير ما فى نفوسنا ؟

ـــ لا تفكر كطارق رمضان الحاقد .

ــ كل شيء حقيقى أكثر من الحقيقة ..

فقلت بغضب :

ــ لا علاقة بين دورى فى المسرحية وبين الحقيقة ..

فضحك ضحكة كريهة ، فقلت متخطية عذابى :

ــ إنه الوهم !

ــ الجميع كما عرفناهم فى الحياة ..

ــ الجديد المتخيل أكثر من الواقع بكثير .

ــ لم صورك فى تلك الصورة ؟

ــ المؤلف شخص آخر غير ابنى .

ــ توهمت كثيرا أنه يحبك ويحترمك !

ــ لا شك فى ذلك .

ــ وجهك يشهد بنقيض لسانك .

ــ إنى واثقة من نفسى ..

ــ حتى طارق ! .. يا لك من امرأة فذة ! ..

صرخت :

ــ أرحنى من أفكارك القذرة .

ــ ذلك الولد الذى زج بنا فى السجن !

ــ لم يكن يصور نفسه ، كان يصورك أنت .

ــ كم ادعى المثالية !..

فقلت مغالبة اليأس فى قلبى :

ـــ عندما يعود سأذهب معه ..

وغادرته إلى حجرتى . أغلقت الباب وأفحمت فى البكاء . كيف لا تعرف أمك يا عباس ؟!

* * *

يهبط السلم مترنحا يكاد يقع من الإعياء . يرانى فيقول :

ـــ كولونيا .. أنا فى غاية الإرهاق ..

أدخل حجرتى لأجيئه بالكولونيا فيتبعنى . أقول :

ـــ إليك الكولونيا ..

ـــ شكرا .. شربت أكثر مما يجوز .

ـــ وكان حظك سيئا من أول السهرة ..

ينتعش قليلا . ينظر إلى . يقوم إلى الباب فيغلقه . أتحفز للرد . يقول :

ـــ حليمة .. إنك رائعة ! ..

ـــ هلم إلى فوق ..

اقترب منى فتراجعت مقطبة .

ـــ أتخلصين لهذا الحيوان ؟

أقول بجدية :

ـــ إنى امرأة شريفة وأم ..

وثبت إلى الباب ففتحته . تردد ثانية واحدة ثم غادر الحجرة إلى خارج البيت .

* * *

ما من أحد منهم إلا راودنى عن نفسى فرفضته . عاهرة ؟! . لقد اغتصبت مرة ، عاشرت أباك زمنا قصيرا ثم ترهبنت ، إنى راهبة لا عاهرة يا بنى . هل زور أبوك لك تلك الصورة الكاذبة ؟ إنى امرأة محرومة تعيسة الحظ . ليس لى أمل سواك فكيف تتصورنى فى تلك الصورة ؟! . سأحدثك عن كل شىء ، ولكن متى ترجع ؟!

* * *

المعربدة يتسللون إلى بيتنا العتيق بليل . بقلوبهم الآثمة المستهترة يدنسون الطريق المفضى إلى سيدى الشعرانى . قلبى يهبط وأنا أطالع نظراتهم الفاجرة ويطوف فى إشفاق حول حجرة عباس . لكنك جوهرة يا بنى ولا يجوز أن تختنق فى وحل الفقر . ها أنا أرحب بهم فى مرح مصطنع وأتقدمهم إلى الحجرة فى الدور الأعلى التى أعدت بقرض لاستقبالهم . وسأعمل لهم ساقية تقدم الطعام والشراب ولا أدرى أين أقف فى المنحدر الوعر .

ـــ يا حبيبى لا تنزعج ، إنهم أصدقاء أبيك ، كل الرجال يفعلون ذلك ..

ـــ وأنت يا أمى ما شأنك وذلك ؟

ـــ إنهم زملائى فى المسرح ولا يليق بى إهمالهم ..

ويقول سرحان الهلالى وهو يتخذ مجلسه إلى المائدة :

ـــ مكان طيب وآمن ..

إسماعيل يفنط الورق . فؤاد شلبى يقول ضاحكا :

ـــ ممنوع جلوس تحية جنب طارق ..

كرم يقف وراء الصندوق فى طرف المائدة . طارق يعلق ضاحكا :

ـــ صندوق نذور سيدى كرم يونس !

سرحان يقول محذرا :

ـــ لا صوت يعلو على صوت المعركة !

كرم يذيب الأفيون بالشاى الأسود ، يالها من بداية لا تعرف لها نهاية .. !

* * *

رجعت إلى الزنزانة كما رجعت الملابس إلى صاحبتها . ها هو يجلس بوجهه الكئيب الشارد . يبيع الفول واللب ويشارك مع الزبائن فى التشكى من الزمان . قلت وكأنما أحادث نفسى :

ـــ نجحت المسرحية وحسبنا ذلك عزاء .

فقال :

ـــ لا يمكن الحكم قبل مرور أسبوع .

ـــ انفعال الجمهور ، الانفعال هو كل شىء ..

ـــ ترى كم أعطاه الهلالى ثمنا لها ؟

ـــ أول عمل يباع بأبخس الأثمان ، وعباس لا يهتم بالمادة ..

قهقه ساخرا ، فلعنته فى سرى .

* * *

فى الحجرة المترامية يرمقنا إله الشر باسما ويتمتم :

ـــ أهلا حليمة .. أخمن أن ابنك يقدم مسرحية جديدة ؟

ـــ هو ذلك .

يقول مخاطبا عباس :

ـــ المسرحيات السابقة لا قيمة لها .

فيقول عباس :

ـــ إنى أنتفع دائما بإرشاداتك .

ـــ بودى أن أشجعك إكراما لوالدتك على الأقل .

* * *

الأسابيع تتلاحق والنجاح يستفحل . لم يعرف المسرح نجاحا كهذا من قبل . الأسابيع تتلاحق والأشهر . متى يظهر المؤلف ؟ . ليكن رأيك ما يكون ، فلأتأ لم ما شاء لى الألم ولكن أين أنت ؟ . وقلت لأسمع الرجل :

ـــ لا شك أنهم فى المسرح يعرفون جديدا عن الغائب ..

ـــ ذهبت إلى هناك آخر مرة منذ عشرة أيام ..

لم أطالبه بشيء تحاميا للسانه . كان يتردد على المسرح من آن لآن أما أنا فلم أجرؤ على الذهاب منذ ليلة الافتتاح . لكنه ذهب فى ضحى اليوم التالى . إنه يوم دافئ ، مشرق الشمس ، وقد خفق قلبى بأمل ملهم .

* * *

أتصور عجائب وغرائب ولكنى لا أتصور أن يتزوج عباس من تحية . سيذهب عباس ويبقى طارق رمضان فأين عدالة السماء ؟

ــ عباس ، إنها تكبرك بعشرة أعوام على الأقل ..

إنه يبتسم فى استهانة فأقول :

ــ لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك ؟

ــ المسألة أنك لم تعرفى الحب ..

تقلص باطنى بمرارة وتذكرت أحزانى الدفينة فعاد يقول :

ــ سنبدأ حياة جديدة ..

ــ لا يمكن أن يتحرر إنسان من تاريخه ..

ــ تحية رغم كل شيء طاهرة ..

لم أكن منصفة ونسيت نفسى . كنت أتمنى له مصيرا أفضل.هذا كل ما هنالك . وقد زارتنى تحية . بدت حزينة ومصممة . قالت لى بتوسل :

ــ لا تقفى فى سبيل سعادتى .

فقلت لها بحدة :

ــ إنك تسرقين البراءة .

ــ سأكون خير زوجة له ..

ــ أنت !

تضايقت من لهجتى فامتقع لونها وقالت :

ــ كل امرأة فى المسرح بدأت من سرحان الهلالى !

تقبض قلبى . أجل كل واحد هناك يعرف ما يعرفه . ويستنتج ما لا يعرف . كأنها تهددنى . إننى أمقتها ، ولكنه سيبقى ابنى رغم كل شىء .

* * *

ألم يتأخر الرجل عن ميعاد عودته ؟

بلى . ها هى الشمس تسحب أطراف ذيلها من جدران الشارع الضيق فماذا أخره ؟ . هل عرف أخيرا مكانه فقصده ؟ . هل يجيئان معا ؟ . إنى أتخيل وجهه المهذب الباسم وهو يعتذر . وأومن بأن هذا العذاب لا يمكن أن يستمر إلى الأبد . أجل أطلعتنى المسرحية على كوامن ضعفى ولكننى حافظت دائما على نقاء قلبى . ثم ألم أكفر عن ضعفى بما فيه الكفاية ؟ . من كان يتخيل تلك الحياة مصيرا لحليمة الجميلة الطاهرة ؟ . لا يخفق قلبى الآن إلا بالسماحة والحب فاقض يا رب بما أنت قاض . حتى كرم سأغفر له وحشيته تقديرا لتعاسته . سأغفر له كل شىء عندما يعود متأبطا ذراع حبيبى الغائب . قلبى يخفق

بإلهام عجيب ولكن مرور الوقت يكدره . وقال لى زبون وهو يمضى بلفافته :

— أنت يا أم عباس فى دنيا أخرى ..

ترامى إلىّ أذان العصر والعتمة تزحف فوق نهار الشتاء القصير . ليس تأخره بلا سبب . إنه لا يقيم وزنا لانتظارى الملهوف ولكن ماذا أخره ؟ . الشمعة تحترق وريح الشتاء تعصف بذبالتها . وقفت وليس فى نيتى أن أجلس ثانية . لقد تغير قلبى . خاننى بلا ترفق . ونفد صبرى لابد أن أذهب . أول من صادفنى عند باب المسرح كان فؤاد شلبى . أقبل بحنان غير معهود وبسط لى يديه وهو يقول :

— أرجو أن يكون خبرا كاذبا ..

فتساءلت وأنا أفقد البقية الباقية من الأمل :

— أى خبر ؟

فارتبك الرجل و لم ينبس فتساءلت :

— عن عباس ؟

فأحنى رأسه بالإيجاب و لم يزد . وغبت عن الوجود .

أفقت فوجدتنى مستلقية على كنبة فى البوفيه وعم أحمد يعنى بى ، وفى المكان فؤاد شلبى وطارق رمضان . حكى لى عم أحمد الخبر بصوت جنائزى ثم ختم بقوله :

— لا أحد يصدق ..

أوصلنى فؤاد شلبى بسيارته . تساءل فى الطريق :

— إذا كان انتحر فأين جثته ؟

فسألته :

— و لم كتب الرسالة ؟

فأجاب :

— ذاك سره .. وسنعرفه فى حينه ..

ولكننى أعرف سره . أعرف قلبى . أعرف حظى . عباس انتحر الشر يعرفه المزمار .

عباس كرم يونس

البيت القديم والوحدة هما رفيقا عمرى الأول . أحفظه عن ظهر قلب . بوابته مقوسة الهامة . شباك المنظرة ذو القضبان الحديدية ، حجراته فى الطابقين ذوات الأسقف العالية والعروق الخشبية الملونة وبلاط أرضياتها المعصرانى . أثاثه القديم الشاحب من الكنبة والشلت والحصر والأكلمة ، وزجاج شراعات أبوابه بقطعه الملونة بالأحمر والأخضر والبنى . وأحياؤه من الفئران والصراصير والأبراص . وسطحه المغطى بحبال الغسيل مثل أسلاك الترام والترولى باص . المطل على أسطح تكتظ بالنساء والأطفال فى عصارى الصيف . أجول فيه وحدى ، وصوتى يتردد بين أركانه مستذكرا درسا أو مسمعا شعرا أو مقلدا مقطوعة مسرحية أو منشدا أغنية . أطل على الطريق الضيق متابعا تيار الخلق ، تواقا إلى رفيق ألاعبه . ينادينى غلام قائلا :

ــ انزل .

فأجيبه :

ــ الباب مغلق والمفتاح مع أبى ..

اعتدت الوحدة بالنهار والليل فلا أخافها ، ولا أخاف الشياطين .

يقول أبى ضاحكا :

ــ لاشيطان إلا ابن آدم ..

فتبادرنى أمى :

— كن ملاكا .

وأتسلى عند الفراغ بمطاردة الفئران والأبراص والصراصير . قالت لى أمى ذات يوم :

— كنت أحملك معى وأنت وليد فى مهد من الجلد وأضعك على أريكة إلى جانبى فى حجرة قطع التذاكر وطالما أرضعتك فى المسرح .

ذلك عهد لا أتذكره ولكنى أتذكر عهدا أحدث نسبيا وأنا فى الرابعة أو حوالى ذلك فكنت أتجول فى صالة المسرح أو وراء الكواليس . وأستمع فيما بين هذا وذاك إلى ممثلين وهم يحفظون أدوارهم فتمتلئ أذناى بأناشيد الخير والمواعظ ونذر الشر والجحيم فأتلقى تربية لم تتح لى على يدى والدى الغائبين عنى دواما بالنوم والعمل . وعند العرض الأول لكل مسرحية جديدة كنت أشهدها مع والدى وأمضى الوقت بين الانبهار والنعاس . وأيضا تلقيت أول كتاب مصور عن ابن السلطان والساحرة أهدانيه فؤاد شلبى . هكذا عرفت بطل الخير وشيطان الشر فى المسرح ، ولم يكن لدى أحد من والدى وقت لتوجيهى ، فضلا عن أن والدى لا يكترث بالتربية بتاتا على حين قنعت أمى بوصية فريدة ترددها لى :

— كن ملاكا .

وتشرح لى معنى الملاك بأنه المحب للخير المانع للأذى النظيف الجسد

والملبس . فولى أمرى الحقيقى هو المسرح ثم الكتاب عندما يجىء وقته وآخرون لا يمتون بصلة إلى أبوى .

لذلك سرعان ما أحببت المدرسة لدى إلحاق بها . انتشلتنى من الوحدة وجادت على بالرفاق . وكان علىّ أن أعتمد على نفسى فى كل خطوة . أستيقظ مبكرا ، أتناول إفطارى البارد من الجبن والبيض المسلوق فى الطبق المغطى بالفوطة . أرتدى ملابسى وأغادر البيت فى هدوء حتى لا أوقظ أبوى النائمين . أرجع عصرا فأجدهما يستعدان لمغادرة البيت إلى المسرح . أبقى وحدى ، أؤدى واجباتى المدرسية ، ثم أتسلى باللعب المنفرد والقراءة — المصورة ثم المكتوبة — ولا أنسى هنا فضل عم عبده بياع الكتب المستعملة الرابض بمجلسه عند مسجد سيدى الشعرانى . وأتناول عشائى المكون من الجبن والحلاوة الطحينية ثم أنام . لا أحظى برؤية والدى إلا فيما بين العصر والأصيل ، وحتى تلك الفترة القصيرة يضيع جانب منها فى الاستعداد للخروج ، ولا يبقى للمؤانسة والرعاية إلا القليل . وتعلق بهما قلبى وأشواقى ، سحرنى جمال أمى وعذوبتها وحنانها ، والملائكية التى تدعونى إليها . وبدا لى أبى كائنا رائعا بمداعباته الرقيقة ، وضحكاته السخية . ولم يفسد جو اللقاء المحدود بتحذير أو إرشاد أو تهديد ، وآثر دائما أن ينفقه فى دعابة ومرح . ولم يزد عن أن يقول لى أحيانا .

— تمتع بوحدتك ، أنت ملك البيت ، ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ،

الولد الوحيد الذى لا يعتمد على أحد ، كذلك كان أبوك ، وستكون أروع منه ..

فتسارع أمى قائلة :

ــ إنه ملاك ، كن ملاكا يا حبيبى ..

وأسأل أبى :

ــ هل كان جدى وجدتى يتركانك وحدك أيضا ؟

فيجيب ضاحكا :

ــ أما جدك فقد تركنى إلى الآخرة قبل أن أعرفه وأما جدتك فكانت موظفة بالداخلية ..

وتقطب أمى فأشعر أن وراء الكلام سرا ما وتقول :

ــ مات جدك مبكرا ولحقت به جدتك فوجد أبوك نفسه وحيدا ..

ــ فى هذا البيت نفسه ؟

ــ أجل ..

ويقول أبى :

ــ لو نطقت الجدران لحدثتك بأعجب الحكايات ..

كان بيت الوحدة ولكنه كان بيت الوئام أيضا . وقتذاك كان أبى وأمى زوجين متوافقين ، أو هكذا بدوا لعينى فيما بين الأصيل والعتمة . يتبادلان الحديث والدعابة . ويشتركان فى عاطفة صادقة نحوى . وكان أبى يميل إلى الانطلاق فى التعبير فتوقفه أمى بنظرة تحذير ألحظها أحيانا

فأتساءل . ولحظة ذهابهما كانت لحظة أليمة ، لذلك كنت أنتظر يوم الخميس بنفاد صبر لأذهب معهما وأشاهد المسرحية . وكلما تقدمت فى التعليم والقراءة طالبت بمزيد من القروش لشراء الكتب حتى كونت مكتبة من قصص الأطفال المستعملة .. وقال لى أبى :

ــ ألا يشبعك أنك تشاهد المسرح كل أسبوع ؟

ولكنى لم أكن أشبع . ووثبت بى الأحلام إلى آفاق جديدة حتى قلت له ذات يوم :

ــ أريد أن أكتب مسرحية !

فقهقه عاليا وقال :

ــ احلم بأن تكون ممثلا فهو أفضل وأربح ..

ــ وعندى فكرة أيضا ..

ــ حقا ؟

ورحت أحكى له فكرة فاوست وكانت آخر ما شاهدت بلا جديد أضيفه إلا أننى جعلت بطلها غلاما فى مثل سنى ، فتساءلت أمى :

ــ وكيف ينتصر الغلام على الشيطان ؟

فأجاب أبى :

ــ ينتصر الإنسان على الشيطان بوسائل الشيطان نفسه !

فهتفت أمى :

ــ احتفظ بأفكارك لنفسك ، ألا ترى أنك تحدث ملاكا ؟

منذ سن مبكرة تشبعت بحب الفن والخير . ناجيتهما طويلا فى وحدتى . وعرفت بهما بين أقرانى فى المدرسة . تميزت بينهم لما غلب على أكثرهم من العفرتة . وكلما ضاق المدرس بهم صاح :

— يا أبناء حى الغوانى !

وملت إلى نخبة قليلة عرفت بالمثالية البريئة حتى كونا من أنفسنا جمعية أخلاقية لمقاومة الألفاظ البذيئة . وكنا نردد الأناشيد ونصدقها ونؤمن بمصر الثورة الجديدة . وعلى حين نذر البعض أنفسهم لبطولات خارقة ، عسكرية أو سياسية ، فقد نذرت نفسى للمسرح وتصورته منبرا للبطولة أيضا ، ويناسب من ناحية أخرى ضعف بصرى الذى جعلنى أستعمل النظارة الطبية قبل إنهاء دراستى الابتدائية . ومهما يكن من اختلافنا فقد حلمنا بعالم مثالى جعلنا أنفسنا على رأس مواطنيه المثاليين . وحتى الهزيمة لم تزعزع أركاننا، ومادامت الأناشيد لم تتغير ، ولا تغير الزعيم ، فماذا تعنى الهزيمة ؟ . لقد شحب وجه أمى وغمغمت بكلمات غير مفهومة ، أما أبى فهز منكبيه كأن الأمر لا يعنيه وراح يردد بصوت أجش ساخر :

بلادى بلادى فداك دمى

وقد توقف المسرح عن العمل أياما فنعمت ببقاء والدى فى البيت طيلة الوقت مرة . واصطحبنى أبى معه إلى مقهى بشارع الجيش فتذوقت تجربة جديدة . وإذن فإن الهزيمة لم تخل من نتائج طيبة غير

متوقعة وإن تكن قصيرة الأجل .

* * *

تقول أمى وهى تملأ أقداحنا بالشاى :

— عباس .. سيسكن عندنا غريب !

رنوت إليها غير مصدق فقالت :

— إنه صديق أبيك ، وأنت أيضا تعرفه ، فهو طارق رمضان .

— الممثل ؟

— نعم ، اضطر إلى ترك مسكنه و لم يجد فى أزمة المساكن حلا آخر .

تمتمت فى غير ارتياح :

— إنه ممثل تافه .. ومنظره لايسر ..

— الناس للناس وأنت ملاك يا حبيبى ..

وقال أبى :

— سيجىء مع الفجر وينام حتى العصر ويظل البيت مملكتك الخاصة عدا حجرة واحدة !

لم أشعر بمجيئه قط ولكنه كان يذهب عادة مع والدىّ أو فى أعقابهما . كان وقح النظرة فظ التعبير . وجعل يهتم بى اهتماما متكلفا مجاملة لأبوى ولكنى لم أحترمه . وشاهد مكتبتى يوما من مجلسه فى الصالة فسألنى !

— كتب المدرسة ؟

فقالت أمى بزهو :

ـــ كتب أدب ومسرحيات ، إنك تحدث مؤلفا مسرحيا !

ـــ اللعنة على المسرح ، ليتنى كنت بياع خردة أو لحمة رأس .

عند ذاك سألته :

ـــ لم لا تمثل إلا أدوارا صغيرة ؟

فسعل سعلة غليظة وقال :

ـــ قسمتى ! .. حظ أعرج يطاردنى ، ولولا شهامة أبيك لاضطررت للبيات فى المراحيض العمومية ..

فقالت له أمى :

ـــ لا ترعب الأستاذ بكلامك يا طارق ..

فقال ضاحكا :

ـــ على المؤلف أن يعرف كل شىء ، والشر خاصة ، فمن الشر ينبع المسرح ..

فقلت بحماس برىء :

ـــ ولكن الخير ينتصر دائما ..

فقال ساخرا :

ـــ هو كذلك فى المسرح ..

* * *

ثمة تغير مبهم يزحف بهدوء وحذر كالليل . ليس الصمت هو

الصمت ، ولا الكلام هو الكلام ، ولا أبى هو أبى ، ولا أمى هى أمى . أجل لم تكن الحياة تخلو من اختلاف أو نقار ولكنها كانت تمضى فى إطار معاشرة طيبة . ما هذا الغامض الخفى الذى تسلل بينهما ؟ . كانت لها إشراقة دائمة فتلاشت . وكان يعيش خارج ذاته فى قهقهات وسخريات وملاطفات فانطوى على ذاته . علاقة أمى بى — إلى الحنان القديم — اتسمت بأسى لم تفلح فى مداراته أما أبى فأهملنى تماما . تسرب إلى جنبات نفسى قلق وتوقعات مجهولة غير سارة . وفى مجلس الشاى قبيل الذهاب سمعت طارق يقول لهما مرة :

— لا تستسلما للشيطان ..

فقالت له أمى بمرارة :

— ما الشيطان إلا أنت .

فقال أبى محتجا :

— لست قاصرا ..

ولم تسترسل أمى إكراما لحضورى فيما توهمت . ولما غادروا البيت انتابنى شعور بالحزن والضياع . لقد حدث شىء ما فى ذلك من شك . إنى أسأل أمى فتتهرب منى متظاهرة بالاستهانة . واسمع حوارا محتدما بينها وبين أبى وهما منفردان فى الصالة فأنكمش وراء الباب الموارب متصنتا . تقول له بتوسل :

— ما تزال توجد فرصة للنجاة .

فيقول لها بغلظة :

ـــ لا تتدخلى فى شئونى الخاصة .

ـــ لكن فعلك ينعكس علينا ، ألا تدرك ذلك ؟

ـــ إنى أكره المواعظ .

ـــ الأفيون قتل زوج خالتى !

ـــ هذا يثبت أنه لا يخلو من فائدة .

ـــ لقد تغيرت أخلاقك و لم تعد تحتمل ..

اقتحمنى الخوف . إنى أعرف الأفيون . عرفته فى مسرحية « الضحايا » . مناظر الهالكين لم تبرح ذاكرتى . هل يصير أبى واحدا منهم ؟ . هل يترك أبى المحبوب للفناء ؟! . وانفردت بأمى فى الصالة قبل مجىء أبى وطارق رمضان . رمقتها بحزن فسألتنى :

ـــ مالك يا عباس ؟

فقلت بصوت متهدج :

ـــ إنى أعرف ، إنه شىء خطير ، لم أنس مسرحية الضحايا ..

ـــ كيف عرفت ؟ .. لا ، ليس الأمر كما تتصور ..

وجاء أبى منفعلا مما قطع بأنه سمعنى وصاح بى :

ـــ يا ولد الزم حدودك ..

فقلت له :

ـــ إنى أخاف عليك ..

فصاح بصوت أفظع من الأول :

ــ اخرس وإلا كسرت رأسك ..

وأخذت وأنا أراه فى صورة جديدة متوحشة . تبدد حلم سعيد طويل . انسحبت إلى حجرتى . تخيلت منظرا مسرحيا متكاملا يبدأ بطرد طارق وينتهى بتوبة أبى على يدى . وقلت إن الخير ينتصر إذا وجد من ينصره . ولكن الحال مضى من سيىء إلى أسوأ . أبى يزداد انطواء . تلاشى الأب القديم . يغيب عنا وإذا دعاه داع إلى اليقظة فلكى يصب اللعنات والإهانات . بت أخافه وأتحاشاه . أمى شقية ولا تدرى ماذا تفعل . وتسأله مرة :

ــ أجرى وحده لا يكفى بيتك ..

فيقول لها ..

ــ انطحى الجدار .

أجل لم تعد المعيشة كما كانت . تقشف فى الطعام وتراجع فى المصروف . أنا لا يهمنى الطعام ولا النقود . كيف أقتنى الكتب ؟ . حياة الروح لا تستغنى عن النقود للأسف الشديد . وأتعس ما رميت به أننى فقدت أبى . أين ذلك الرجل القديم ؟ . يثور على نظرة عينى ويقول لى :

ــ إنك أنموذج سيىء لا يصلح للحياة ..

وتدهور الحال حتى انفصلا تماما فاستقل كل منهما بحجرة . تفتت

البيت . بتنا سكانا غرباء فى طابق واحد . عز علىّ مصير أمى . ومن ذلك المنطلق تخيلت موقفا مسرحيا يدور حول معركة بين أبى وطارق ، يقتل أبى طارق رمضان ثم يقبض عليه ويمضى وهو يقول لى « ليتنى سمعت كلامك » . يعود الطهر إلى البيت القديم ولكننى أشعر بالندم . الندم على قسوة خيالى . وأسأل أمى :

ــ كيف تواجهين تكاليف الحياة وحدك ؟

ــ إنى أبيع أشياء صغيرة . انتبه لعلمك فأنت الأمل الوحيد الباقى ..

ــ قلبى معك .

ــ أعرف ذلك ولكن لم يحن الوقت بعد لتحمل همومنا . يجب أن تعمل من أجل مهنة مفيدة ..

ــ حلمى أن أكون مؤلفا للمسرح ..

ــ مهنة لا تضمن لك ثروة .

ــ إنى أحتقر المادة ، أنت تعرفين كل شىء عنى ..

ــ احتقر المادة ولكن لا تتجاهلها ..

فقلت لها بحماس :

ــ سينتصر الخير يا أمى ..

أنى أدمن الحلم كما يدمن أبى الأفيون . بالحلم أغير كل شىء وأخلقه . أكنس سوق الزلط وأرشه ، أجفف طفح المجارى ، أهدم

البيوت القديمة وأقيم مكانها عمارات شاهقة ، أهذب الشرطى ، أسمو بسلوك الطلاب والمدرسين ، أوفر الطعام من الهواء ، أمحق المخدرات والخمر .

ويجلس أبى فى الصالة ذات عصر وهو يشذب شاربه بملقاط وقبالته طارق يرفأ جوربه . ويقول طارق :

ـــ لا يخدعك فقر الفقراء فالبلد ملأى بأغنياء لا يدرى بهم أحد .

فقال أبى :

ـــ الهلالى يربح ذهبا ..

فيضحك طارق قائلا :

ـــ طظ فى الهلالى وذهبه ، حدثنى عن النساء وفائض البترول !

ـــ يعجبنى الجنون ولكننا عاجزون ..

وتدخلت قائلا :

ـــ كان أبو العلاء يعيش على العدس وحده ..

فصاح بى أبى :

ـــ انقل هذه الحكمة لأمك !

وألوذ بالصمت وأنا أقول لنفسى « يا لهما من حيوانين » .

* * *

تحية أمامى وجها لوجه . ناضجة الأنوثة جذابة العينين . نظرت إليها فى ذهول وأنا لا أصدق عينى . فى الأيام السابقة للامتحان كنت أسهر

الليل وأنام فى النهار . فتح الباب وأنا أتمشى فى الصالة ودخلت تحية أما أبى وأمى فقد سبقا للنوم . دخلت تحية وفى أثرها طارق رمضان . إنى أعرفها وطالما رأيتها فوق خشبة المسرح تقوم بأدوارها الثانوية مثل طارق :
نظرت إليها بذهول فقالت باسمة :

ـــ ماذا يوقظك فى هذه الساعة المتأخرة ؟

فقال طارق :

ـــ إنه مجاهد يسهر الليل فى طلب العلم وبعد أسبوع سيدخل امتحان الإعدادية ..

ـــ برافو ..

ومضيا يصعدان السلم إلى حجرة طارق . دار رأسى . فار دمى . أيجىء بها إلى حجرته من وراء أبى وأمى ؟! . أليس لها بيت يذهبان إليه ؟ . أى تدهور يهبط ببيتنا إلى الحضيض ؟ . عجزت عن تركيز ذهنى واحترق رأسى بالفكر. هاجمنى الشر وأنا أعانى المراهقة والرغبات الجامحة وأكافحها بالإرادة والطموح إلى النقاء . واشتعلت بالغضب حتى صرعنى النوم . وأقبلت على والدى وهما يجلسان فى الصالـة عصرا . ما إن رآنى أبى حتى تساءل فى توجس :

ـــ ماذا وراءك ؟

فقلت بتدفق حار :

ـــ حدث غريب لا يتصوره عقل ، جاء طارق بتحية إلى حجرته أمس !

فمد إلىّ بصره الثقيل وثبته علىّ دون أن ينبس فتوهمت أنـه لا يصدقنى فقلت :

ـــ لقد رأيت بعينى ..

فسألنى ببرود مثير :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ أردت أن أخبرك لتؤدبه وتفهمه أن بيتنا بيت محترم ، يجب أن تطرده ..

فقال بحدة :

ـــ انتبه لعملك ودع شئون البيت لصاحبه ..

وقالت أمى بصوت منخفض ذليل :

ـــ إنها خطيبته ..

ـــ ولكنه لم يتزوجها بعد !

فخاطب أبى أمى قائلا بسخرية وهو يومئ ناحيتى :

ـــ يريد أن يموت جوعا ..

فقلت مجتاحا بدفقة غضب :

ـــ نحن الذين أفقرنا أنفسنا ..

فرفع قدح الشاى ليرمينى به ولكن أمى وثبت بيننا ، ومضت بى إلى حجرتى . رأيت عينيها منذرتين بالدمع وقالت لى :

ـــ لا فائدة ترجى منه فلا تحتك به ، بودى لو نهجر البيت معا ،

ولكن أين نذهب ؟ . أين نجد مسكنا ؟ ، ومن أين لنا بالنقود ؟!

لم أجد جوابا . تبدت لى الحقيقة ببشاعتها وبلا رتوش . لقد أذعنت أمى مغلوبة على أمرها . وغلب أبى على أمره مهزوما بإدمانه . إنه مسئول ما فى ذلك شك ولكنه مغلوب على أمره . إنه أكثر من ذلك فإنه يبدو أحيانا بلا مبادىء على الإطلاق . إنى أحتقره بقدر ما أرفضه . لقد جعل من مأوانا العتيق بيت دعارة . أنا أيضا ضعيف ما دمت لا أجد ما أفعله إلا أن أذرف الدمع الغزير ..

* * *

نجحت غير أنى لم أسعد بالنجاح كما ينبغى . لازمنى الشعور بالعار . استقر بأعماقى حزن مقيم . هاجرت فى العطلة الطويلة إلى دار الكتب . كتبت مسرحية . رجوت أبى أن يعرضها على سرحان الهلالى ولكنه قال لى :

— إنه ليس مسرح أطفال ..

تطوعت أمى بتقديمها إليه . رجعت بها بعد أسبوعين وقالت لى :

— لا تتوقع أن تقبل أولى مسرحياتك وما عليك إلا أن تعيد التجربة ..

حزنت ولكنى لم أيأس . وكيف أيأس بعد أن لم يعد لى من أمل إلا المسرح ؟ . وصادفت ذات يوم الأستاذ فؤاد شلبى فى قاعة المطالعة فصافحنى وذكرته بنفسى فرحب بى . وتشجعت بلطفه وسألته :

ـــ كيف أكتب مسرحية مقبولة ؟

فسألنى بدهشة :

ـــ ما عمرك ؟

ـــ ماشى فى السادسة عشرة .

ـــ فى أى مرحلة تعليمية ؟

ـــ الثانوية بدءًا من العام القادم .

ـــ ألا تنتظر حتى تكمل تعليمك ؟

ـــ أشعر بقدرة على الكتابة .

ـــ لكنك لم تفهم الحياة بعد .

ـــ عندى فكرة عنها لا بأس بها .

فسألنى باسما :

ـــ ما هى الحياة فى نظرك ؟

ـــ هى معركة الروح ضد المادة .

فازدادت ابتسامته اتساعا وهو يتساءل :

ـــ والموت ما موقعه من هذه المعركة ؟

فقلت بثقة :

ـــ هو الانتصار النهائى للروح !

فربت على منكبى وقال :

ـــ ليت الأمور بهذه البساطة ، تلزمك تجارب كثيرة كثيرة ، ابحث أيضا عما يهم الناس ويثيرهم ، إنى أطالبك بخوض خضم الحياة

والانتظار عشرة أعوام على الأقل ..

دفعنى حديثه فى جوف الوحدة أكثر مما كنت . إنه يتصور أننى بمنجاة من التجارب . لعله غاب عنه ما يحدث فى بيتنا . وغاب عنه أيضا جهاد النفس فى معركة المراهقة . النزاع الذى لا يهدأ بين السمو والشهوات . بين أشعار المجانين والخيام . بين تحية العابثة فى الحجرة العليا وطيفها الزائر للخيال . بين الطين وقطرات السحب البيضاء .

* * *

إن ما يفعل بالحجرة المجاورة لحجرة طارق عجيب . بيع أثاثها القديم ، اشترى لها أثاث جميل من مزاد علنى . توسطتها مائدة خضراء ، غطى بلاطها المعصرانى بساط كبير ، قام فى جدارها الأوسط بوفيه ، إنه استعداد غامض . وأسأل أمى فتقول :

ــ أبوك يعدها للسمر مع أصدقائه كما يفعل الرجال ..

رمقتها بارتياب فما عاد اسم أبى يوحى إلا بالارتياب فقالت :

ــ سيسهرون سهرتهم عقب إغلاق المسرح ..

تعودت أن أقبع فى الظلام فى حجرتى لأرى الأشياء . لا ترى الحوادث على حقيقتها فى بيتنا إلا من الظلام . وقد جاء الصحاب فى هزيع موغل من الليل . رأيتهم يتقاطرون ، فى المقدمة والدى ، الهلالى ، إسماعيل ، سالم العجرودى ، فؤاد شلبى ، طارق ، تحية . تسللت إلى الدور الأعلى فى الظلام . قد تحلقوا المائدة ودار الورق . إنه القمار كما رأيته فى

المسرح . مآسى المسرح تنتقل إلى بيتنا بأبطالها أو ضحاياها . هؤلاء الناس يتصارعون فوق الخشبة أما هنا فيقفون صفا واحدا فى جانب الشر . إنهم ممثلون . حتى الناقد ممثل أيضا . لا شىء حقيقى إلا الكذب . إذا جاء الطوفان فلن يستحق السفينة إلا أمى وأنا . إن يكن للنية قيمة إذ لا عمل لنا . حتى أمى تعد الطعام والشراب . وأقول لها :

ــ ما كان ينبغى أن تقومى بخدمة السفلة ..

فتقول كالمعتذرة :

ــ إنهم زملاء وأنا ربة البيت ..

ــ أى بيت ؟ ، ما هو إلا ماخور وناد للقمار ..

فتقول بأسى :

ــ أتمنى لو أهرب ، لو نهرب معا ، ولكن ما الحيلة ؟

فأقول بحنق :

ــ لذلك أكره النقود !

ــ لكنها ضرورية ، هذه هى المأساة ، علىٰ أى حال فلا أمل لى سواك ..

* * *

ما الخير ؟ . ما الخير بلا عمل ؟ . لا ينشط إلا الخيال . الخيال ميدانه المسرح . البيت غنيمة فى يد السفلة . حداثة سنى ليست بالعذر المقبول . إنه العجز . لذلك مر النصر كخبر . فى الأقران من الطلبة

حياة لا أشارك فيها إلا بالحماس والخيال . تتحول الكلمات الجميلة إلى صور لا أفعال . إنهم يرقصون رقصة الموت على حين أصفق أنا خارج الحلبة . ويجىء فؤاد شلبى بدرية ليتناجيا فى الحجرة الثالثة تحت إطار البسملة المهداة من جدى . وقلت لأمى :

— شلبى ودرية أيضا ، علينا أن نذهب .

فقالت محمرة العينين :

— ليس قبل أن تستطيع ذلك أنت .

— إنى أختنق .

— وأنا مثلك وأكثر .

— هل الأفيون هو المسئول عن ذلك كله ؟

فلم تنبس فقلت :

— ربما كان نتيجة وليس السبب .

— أبوك مجنون .

ثم بصوت منخفض :

— ولكنى مسئولة عن انخداعى به ..

— أود أن أقتله ..

فمست ذراعى بحنان وهمست :

— انغمس فى العمل فأنت الأمل الباقى ..

* * *

ليلة النار التى أهلكت آخر نبتة خضراء . من الظلام رأيت سرحان الهلالى يهبط السلم مترنحا . شعره منفوش ، عيناه مظلمتان ، يسوقه جنون أعمى . لماذا هجر الحجرة والمعركة محتدمة ؟ . خرجت أمى من حجرتها مستطلعة وكنت أظنها فوق . لاقته أسفل السلم . تهامسا بما لم تبلغه أذناى . دخلت حجرتها فاندفع وراءها . توثبت للاندفاع ولكننى لم أتحرك . أهمنى أن أعرف الحقيقة أكثر من أن أمنعها . أمى أيضا ؟! . لعله أغمى على دقائق . هى النهاية التى ليس وراءها نهاية . تفتت الكون وضج بسخرية الشياطين . اندفعت إلى الصالة ومنها إلى الحجرة وقد غرقت فى الظلام . أضأت النور فوجدتها خالية . أطفأت النور وخرجت إلى الصالة وأضأتها . لبثت واقفا بوعى مشتت . وإذا بوالدى يهبط السلم حتى يقف أمامى ويسألنى بخشونة :

— ماذا أيقظك ؟

فقلت وأنا لا أدرى ماذا أقول :

— أرق طارئ .

— هل رأيت سرحان الهلالى ؟

— إذا لم يكن فوق فقد غادر البيت .

— متى ؟

— لا أدرى .

— هل رأته أمك ؟

ـ لا أدرى .

رجعت إلى حجرتى . لبثت واقفا فى الظلام يشتعل رأسى بأفكار جنونية . لم أشعر بمرور الوقت حتى انتبهت إلى وقع أقدام الراحلين . لم يبق فى الصالة إلا أبى وأمى . ألصقت أذنى بثقب الباب لأسمع ما يدور . سمعته يسألها :

ـ ماذا حدث من وراء ظهورنا ؟

لم تجب فعاد يسأل :

ـ عباس رأى ؟

لم تجب أيضا فقال :

ـ هو الذى ألحقك بالعمل .. معروف أنه لم يعتق امرأة واحدة حتى أم هانى ..

لم أسمع لها صوتا فعاد يقول :

ـ لا شىء بلا ثمن ، هذا ما يهمنى ، أما أنت فلا تستحقين الغيرة ..

أخيرا جاء صوتها قائلا :

ـ إنك أحقر من حشرة !

فقال مقهقها :

ـ إلا حشرة واحدة .

هذه هى الحقيقة . هذا أبى وهذه أمى . النار تتمادى فى الاشتعال . اغمد خنجرك فحتى قيصر قد قتل . سيرانو دى برجـراك صاول

الأشباح . إنى أرفض أبوى . القواد والداعرة . لا أنسى أننى رأيتها وفؤاد شلبى يتهامسان مرة فلم يداخلنى سوء ظن . ومرة أخرى مع طارق رمضان نفسه فلم يداخلنى شك . الجميع .. الجميع .. بلا استثناء .. لم لا ؟ . هى عدوى الأول . أبى مجنون مدمن أما أمى فهى المدبرة لما يجرى فى الكون من الشر .

* * *

جاءنى فى حجرتى صوت أمى مناديا فلم أستجب . من عجب أن مقتى لأبى متجسد واضح أما شعورى نحوها فيتجسد فى سخط عارم لا كراهية واضحة . سرعان ما جاءت فأخذتنى من يدى وهى تقول :

ـــ أجل القراءة وكرس لنا هذا الوقت القصير النادر ..

أجلستنى إلى جانبها فى الصالة ، قدمت لى الشاى ، قالت :

ـــ أنت لا تعجبنى هذه الأيام ..

تجنبت النظر إلى وجهها فقالت :

ـــ إنى أعلم بما يحزنك ولكن لا تضاعف آلامى ، ساعة الخلاص تقترب وسنذهب معا ..

يا لها من مخادعة . تمتمت :

ـــ لا يطهر هذا البيت إلا حرقه !

ـــ حسبك قلبى الذى يعبدك !

هل أصب عليها الحمم الذى يمور به قلبى ؟ . لكن خيالى كان يدمر

كل شيء ثم يقف حائرا أمام عينيها .

وسألتنى :

ـــ هل تكتب مسرحية جديدة ؟

فقلت :

ـــ ستذكرك بمسرحية « المرأة السكيرة » .

إنها مسرحية تقدم عالما أسود من النساء الساقطات فقالت :

ـــ لا .. فلتشرق مسرحياتك بنور قلبك ..

عند ذاك خرج أبى من حجرته ونزل طارق وتحية . وقفت لأرجع إلى حجرتى ولكن تحية اعترضت سبيلى قائلة بمرح :

ـــ اجلس معنا أيها المؤلف ..

لعلها أول مرة تعيرنى اهتماما فجلست على حين قال طارق ضاحكا :

ـــ سيكون هذا المؤلف تراچيديا ..

فتمتم أبى ساخرا :

ـــ إنه مريض بداء الفضيلة !

فقالت تحية وهى ترشف من قدحها رشفة :

ـــ جميل أن يوجد فى زماننا هذا فاضل ..

فقال أبى :

ـــ بصره ضعيف كما ترين فهو لا يرى ما حوله .

فقالت تحية :

ــ دعوه فى جنته ، إنى أحب الفضيلة أيضا !

فقال طارق ضاحكا :

ــ فضيلتك من النوع الضاحك المقبول .

فقالت تحية :

ــ إنه وسيم مثل أمه .. قوى كأبيه .. يجب أن يكون دون چوان .

فقال أبى ساخرا :

ــ انظرى إلى نظارته ، عيبه أنه لا يرى ..

ولما ذهبوا فاض قلبى بالغضب والافتتان . نشط خيالى ليهدم ويعيد البناء . ما تحية إلا صورة من أمى بل هى أفضل . عندما اعترضت سبيلى مستنى فحركت حلما جديدا . عندما تذكرت مسها لى وأنا وحيد انبثقت من سعير نفسى فكرة . هذه الدار العتيقة التى بناها جدى بعرق جبينه وكيف تحولت إلى ماخور ! . هذه هى الفكرة . لا دليل لدىّ على نجاحها إلا ارتعاشة الفرح التى خامرتنى . هل تصلح أساسا لمسرحية ؟ . وهل تقوم مسرحية بلا حب ؟

* * *

سمعت على الباب نقرا خفيفا . فتحته فرأيت تحية . ماذا جاء بها قبل ميعاد مجلس الشاى ؟ . دخلت وهى تقول :

ــ الجميع نيام إلا أنت ..

وقفت فى وسط الحجرة بملابس الخروج تجيل النظر فى أنحائها

وتقول :

ـــ إنها بيت لا حجرة ، مكون من غرفة نوم ومكتبة ، هل أجد عندك حلوى ؟ ..

فقلت معتذرا :

ـــ آسف ..

استوى جسمها الناضج فى وسط الحجرة فى هالة من الإثارة والجاذبية . ورأيت لون عينيها لأول مرة كالشهد الرائق . قالت :

ـــ يجب أن أذهب ما دام لا يوجد عندك إلا الكتب ..

ولكنها لم تتحرك بل راحت تقول :

ـــ لعلك تتساءل عما دفعنى للخروج مبكرة ، إنى ذاهبة إلى شقتى فى شارع الجيش ، ألا تعرفها ؟ ، إنها تبعد عن باب الشعرية بمحطة ترام .. العمارة ١١٧ .

سألتها وقد ثملت تماما بحضور الأنوثة الفواح :

ـــ انتظرى حتى أجيئك بحلوى من الخارج ..

ـــ سأجد فى الطريق ما يلزمنى ، إنك لطيف جدا ..

فقلت متناسيا فى تلك اللحظة ما يرمز إليه وجودها من معاناة لضميرى .

ـــ أنت اللطيفة حقا ..

فرنت إلى بنظرة موحية بالأحلام وتحركت ببطء ورشاقة نحو الباب

فهمست على رغمى :

— لا تذهبى .. أعنى .. خذى راحتك ..

لكنها ابتسمت فى ارتياح ظافر ومضت وهى تقول :

— إلى اللقاء ..

تركت وراءها فى الحجرة الهادئة عاصفة من الانفعالات البهيجة . لم تجئ لغير ما سبب ولم تذكر رقم العمارة اعتباطا . خفق قلبى المحروم المتشبث بالبراءة . لأول مرة يجد قلبى امرأة حقيقية ليهيم بها . إنه لم يهم قبل ذلك إلا بليلى ولبنى ومية وأوفيليا وديدمونة . وفيما تلا ذلك من أيام أصبح لكل نظرة نتبادلها خلسة معنى جديد يوكد سحر الحياة . فى غفلة من الحضور نتبادل حوارا ساخنا . وتساءلت وأنا من الحيرة فى عناء ترى أأرتفع أنا أم أهوى إلى الحضيض ؟!

* * *

ورغم رياح أمشير المزمجرة فى الخارج ترامى إلى أذنى من الطابق الأعلى صخب وعنف . رقيت فى السلم مستكشفا فرأيت — فى الصالة — طارق وهو ينهال لطما على وجه تحية . تسمرت ذاهلا . توارت هى فى الحجرة على حين قال لى هو فى برود :

— أزعجناك !

فتمتمت وأنا أكتم انفعالاتى :

— معذرة .

ـــ لا تنزعج واستمتع بمشاهدة بعض عاداتنا اليومية ..

وجاء صوتها المتهدج من الداخل صائحا :

ـــ لن أرجع هذه المرة ..

وسرعان ما تبعها طارق وأغلق الباب .

ورجعت بحزن جديد غاص بى أكثر فى قلب الظلام . لِمَ ترضى امرأة جميلة مثل تحية بحياة مهينة مع رجل كطارق ؟ . هل يتكشف الحب أيضا عن مأساة ؟ . وقد غابت بالفعل يومين ولكنها رجعت فى الثالث مشرقة الوجه ! . تقلص قلبى وتضاعف حزنى . احتقرت سلوكها ولكن حبى لها تجسد لى حقيقة لا مفر منها . ولعله ولد ونشأ ونما من قبل أن أعيه بزمن غير قصير . وفى ذلك اليوم عندما مضوا يغادرون المكان تأخرت لإصلاح جوربها ثم أسقطت من يدها لفافة ورق صغيرة قبل اللحاق بهم . بسطت الورقة بقلب مرتعش بالبهجة فقرأت العنوان والساعة .

* * *

الشقة صغيرة مكونة من حجرتين ومدخل ولكنها جميلة ونظيفة وتعبق بشذا بخور عذب . على منضدة فى المدخل استقر أصيص برتقالى كروى تنطلق منه باقة ورد وزهور كنافورة . استقبلتنى باسمة فى روب كحلى وهى تقول مشيرة إلى الورد :

ـــ احتفالا بيوم اللقاء .

دفعتنى أشواق متراكمة إليها فتعانقنا طويلا وتذوقت فرحة القبلة الأولى . ولو ترك الخيار لى لانتهى اللقاء قبل أن ننفصل ولكنها تخلصت بلطف وقادتنى إلى حجرة جلوس زرقاء بسيطة وأنيقة فجلسنا جنبا إلى جنب على الكنبة الرئيسية . قالت بصوت منخفض :

ــ تصرفنا جرىء ولكنه عين الصواب .

فرددت بتوكيد :

ــ عين الصواب .

ــ ليس ممكنا أن نخفى ما بنا أكثر ..

فقلت مصمما على إزاحة الطفولة :

ــ عين الصواب ، أنا أحبك من زمن طويل .

ــ حقا ؟ .. أنا أيضا .. هل تصدق أنى أحب لأول مرة !

لم أنبس و لم أصدق فقالت بحرارة :

ــ لقد رأيت بنفسك وسمعت ربما ما هو أكثر ، ولكنه التخبط لا الحب ..

فقلت بأسف :

ــ حياة لا تليق بواحدة مثلك ..

فاستأنست بكلامى وقالت :

ــ لا يسأل متسول عما يليق وعما لا يليق ..

ــ يجب أن يتغير كل شىء ..

ـ ماذا تعنى ؟

ـ يجب أن نبدأ حياة لائقة .

فتمتمت بتأثر :

ـ لم أصادف أحدا مثلك . كانوا كلهم حيوانات ..

فتساءلت بامتعاض :

ـ كلهم ؟

ـ لا أريد أن أخفى عنك شيئا ، سرحان الهلالى ، سالم العجرودى ، وأخيرا طارق ..

صمت .. تذكرت أمى . أما هى فقالت :

ـ إن كنت ممن لا يتسون الماضى فالفرصة ما زالت متاحة للتراجع .

أخذت راحتها بين راحتى ، شعرت بقوة ذاتية تدفعنى للقوة والتحدى ، فقلت :

ـ لا أبالى إلا بالقيمة الحقيقية ..

ـ حدثنى قلبى دائما بأنك أكبر من مخاوفى الصغيرة .

ـ لست طفلا ..

فقالت باسمة :

ـ لكنك ما زلت تلميذا .

ـ ذلك حق ، ما زالت أمامى مرحلة طويلة ..

فقالت ببساطة مخلصة :

— أصبح لدى مدخر قليل وبوسعى أن أنتظر ..

لكننى وقعت فى أسر الحب ، وفاضت بى رغبة كامنة فى هجر البيت الملوث الكئيب . فعقدت العزم على اتخاذ قرار يحول بينى وبين التراجع ويفتح لى فى الوقت ذاته طريقا جديدا . قلت :

— بل يجب أن نعقد زواجنا فى الحال ..

فتورد وجهها وازداد حسنا وارتج عليها القول . فقلت :

— هذا ما يجب علينا .

— الحق أنى أريد أن أغير هذه الحياة ، أريد أن أهجر المسرح أيضا ، لكن هل تضمن أن يمدك أبوك ببعض المال ؟

فقلت باسما فى أسى :

— هيهات أن يفعل ، وهيهات أن أقبل مالا ملوثا ..

— وكيف إذن نتزوج ؟

— بعد قليل سأفرغ من دراستى الثانوية ، لن أجند لضعف بصرى ، فمن الأفضل أن أعمل ، خاصة وأن موهبتى تعتمد على الدراسة الخاصة أكثر من الدراسة النظامية ..

— هل يكفى فى هذه الحال مرتبك ؟

— لقد طلب أبى إعفاءه من عمله فى المسرح اكتفاء بما يربحه من القمار وغيره ، وهم الآن بصدد البحث عن ملقن ، سأتقدم لأحل محل أبى فأجد عملا فى جو المسرح الذى أعقد به أملى فى الحياة .. يضاف إلى

ذلك أنك تستأجرين شقة فلن تصادفنا عقبة السكن ..

ـــ هل أستمر فى عملى بالمسرح حتى تتحسن الأحوال ؟

فقلت بحدة :

ـــ كلا .. يجب الابتعاد عن أولئك الرجال ..

ـــ قلت إنه لدىّ مدخر قليل ولكنه لن يبقى حتى تقف على قدميك ..

فقلت بحماس :

ـــ علينا أن نتحمل حتى نبلغ النجاح المنشود ..

عند بلوغ ذلك المرفأ استسلمنا لعواطفنا ونسينا إلى حين كل شىء ... وربما لولاها ما وصلنا الحديث ، ولكنها تخلصت من ذراعى بحنان وهى تهمس :

ـــ يجب أن أتخلص من طارق .. لن أراه مرة أخرى .

فسألتها بضيق :

ـــ سيجىء إلى هنا .

ـــ لن أفتح له الباب .

فقلت بتحد :

ـــ سأخبره بكل شىء ..

فقالت بقلق :

ـــ أرجو ألا تتطور الأمور إلى ما يسوء ..

فقلت بكبرياء :

ـــ إنى على استعداد لمواجهته ..

* * *

رجعت إلى باب الشعرية مخلوقا جديدا . لأول مرة أراها من خلال نظرة المودع فتلوح فى غلالة أجمل وأجذب للحنان . عما قليل سأنتقل من مقاعد المتفرجين لألعب دورا فى مسرح الحياة . سأستنشق هواء نقيا غير هواء هذا البيت القديم العطن . جلست فى الصالة الخالية فى الدور الأرضى حتى رأيت طارق هابطا . حيانى ثم سألنى :

ـــ ألم تحضر تحية ؟

فقلت وأنا أتوثب للنزول :

ـــ كلا .

ـــ لم أقابلها فى المسرح .

ـــ لن تذهب إلى المسرح .

ـــ ماذاتعنى ؟

ـــ لن تحضر إلى هنا ولن تذهب إلى المسرح .

ـــ من أدراك بهذه الأسرار كلها ؟

ـــ سنتزوج .

ـــ هه ؟!

ـــ اتفقنا على الزواج ..

ـــ يابن .. أنت مجنون ؟! .. ماذا تقول ؟

ـــ قررنا أن نكون شرفاء معك .

ما أدرى إلا ويده تلطمنى . ثار غضبى فوجهت إلية لكمة كادت تلقيه على الأرض . وإذا بوالدى يندفعان نحونا . صاح طارق :

ـــ شيء مضحك .. المحروس سيتزوج من تحية ..

هتفت أمى :

ـــ تحية ! .. إنها أكبر منك بعشرة أعوام ..

راح طارق يهدد حتى قالت له أمى :

ـــ خذ ملابسك ومع السلامة ..

صاح وهو يمضى إلى الخارج :

ـــ باق على أنفاسكم حتى النهاية ..

وسادنا الصمت قليلا . تمتم أبى ساخرا :

ـــ فى العشق يا ما كنت أنوح ..

وقالت لى أمى :

ـــ عباس .. ما هى إلا نزوة إغراء .

ـــ لا .. إنها حياة جديدة ..

ـــ وأحلامك ومستقبلك ؟

ـــ ستتحقق على خير مثال .

ـــ ماذا تعرف عنها ؟

ــ لقد صارحتنى بكل شىء ..

فقهقه أبى قائلا :

ــ بنت مسارح وتعرف الأصول .. وأنت شاب غريب .. كان يجب أن تزهدك معرفتك لأمك فى جنس النساء ..

عند ذاك مضت بى أمى إلى حجرتى ، وقالت لى :

ــ لها سيرة وتاريخ ألا تفهم ما يعنيه ذلك ؟

تجنبت النظر إليها . طحنتنى من جديد الآلام الماضية . قلت :

ــ من سوء الحظ أنك لم تعرفى الحب .. سنبدأ حياة جديدة .

ــ لا يمكن أن يتحرر إنسان من تاريخه ..

أواه .. إنها لا تدرى أننى أدرى .. وقلت :

ــ تحية رغم كل شىء طاهرة ..

ليتنى أستطيع أن أقول عنك ذلك أيضا يا أمى ..

* * *

ما إن أتممت المرحلة الثانوية حتى قابلت سرحان الهلالى راجيا أن أحل مكان أبى . وفى الحال عقدت زواجى بتحية . ودعت البيت القديم وأهله بلا احتفال وكأنما أمضى إلى المدرسة أو دار الكتب . لم يتفوه أبى بتهنئة أو دعاء ولكنه قال :

ــ لماذا كان اجتهادك فى المدرسة ما دام المصير هو عمل ملقن فى الفرقة ؟

أما أمى فقد عانقتنى وهى تنشج بالبكاء وقالت لى :

— ربنا يسعدك ويكفيك شر الناس ، اذهب مصحوبا بالسلامة ولا تنس زيارتنا ..

ولكن العودة إلى الجحيم لم تخطر لى ببال . تطلعت إلى حياة جديدة وإلى هواء نقى . وتمنيت أن أنسى البؤرة التى انصهرت فيها معانيا آلام العذاب والغم . ووجدت تحية فى انتظارى ، كما وجدت الحب ينتظر أيضا . وعرفت السعادة عندما تترجم إلى امتزاج بين اثنين متوافقين . فتضفى سحرها على الحديث والصمت ، الجد واللهو ، الطعام والعمل . وكانت تكمل بمدخرها ما يقصر عنه مرتبى . وحظيت باستقرار نفسى عوضنى عما بدده القلق والتشتت والحزن والغضب الكظيم . وكنت أرجع إلى البيت حوالى الثانية صباحا ، أستيقظ حوالى العاشرة ، ويتسع الوقت بعد ذلك للحب والقراءة والكتابة أيضا . وكان كلانا يعقد أمله بالنجاح المأمول فى تأليفى المسرحى . وفى سبيل ذلك رضينا بالبساطة فى العيش ، بل بالتقشف أيضا ، وضاعف الاجتهاد والصبر والأمل من سعادتنا المشتركة . وأثبتت تحية بجدارة قوة إرادتها فلم تذق قطرة من خمر على تعلقها القديم بها ، بل امتنعت أيضا عن عادة التدخين توفيرا لثمنه . واعترفت لى بأن قدمها كادت تتزلق إلى إدمان الأفيون لولا أن تعاطيها له صحب بأعراض صحية سيئة كالقىء الشديد فكرهته من أول الأمر . ولاحظت مهارتها كست بيت حتى

قلت لها مرة :

— بيتك نظيف دائما ومنظم ، طعامك ممتاز ، معاملتك مهذبة ، ما كان يجوز ..

وانقطعت عن تكملة الجملة فقالت :

— مات أبى فتزوجت أمى من محضر ، لقيت منها الإهمال ومنه سوء المعاملة حتى اضطررت إلى الهرب .. !

لم تزد ولم أسأل عن مزيد . تخيلت على رغمى ما حدث حتى عملت ممثلة ثانوية عند سرحان الهلالى .

على رغمى أيضا تذكرت أمى وعملها فى المسرح نفسه وتحت رحمة سرحان الهلالى . أضمرت حربا لا هوادة فيها على كافة ألوان العبودية التى يتعرض لها الناس . لكن هل يكفى المسرح ميدانا لهذه الحرب ؟ . وهل تغنى فكرة البيت القديم الذى تدهور فصار ماخورا ؟!

* * *

حافظت تحية على رقتها وعذوبتها بصورة مباركة . لم تعرف علاقة أمى وأبى ذلك حتى فى أيام طفولتى السعيدة . إنها — تحية — ملاك حقا . وآى ذلك تصميمها الناجح على محق عاداتها السيئة التى شابتها فى عهد الأحزان . وهى تحبنى بصدق ، وقد تجلى ذلك فى حرصها على الإنجاب . ولم أكن أرحب به ، وكنت أخافه على مواردنا المحدودة ، وعلى حياتى الفنية المفضلة عندى على كل شىء فى الحياة ، حتى الحب

نفسه . غير أننى كرهت أن أحول بينها وبين أمنيتها الأثيرة ، وأبت أخلاقيتى الإذعان للأنانية . وكان الغلاء يتصاعد غير مكترث بتقشفنا وآمالنا فحملنا على التفكير فى وسيلة جديدة لمجابهته . وفى تلك الأثناء تحققت أمنيتها فى الحمل فركبنى هم جديد . وكان على أن أستعد للمستقبل القريب والبعيد معا ، ثم أقنعنى الحال بأنه لا مفر من الاستعانة بعمل إضافى إن أمكن .

وكنت قد تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة محاكاة لما سمعته عن استعمال الكتاب الأمريكيين والأوروبيين لها بدلا من القلم . وكنت أمر أمام مكتب « فيصل » للآلة الكاتبة فى طريقى إلى المسرح فعرضت نفسى على صاحبه ، وسرعان ما قبلنى بعد اختبار أجراه بنفسه . قبلت العمل من الثامنة صباحا حتى الثانية بعد الظهر ، وقدر أجرى بالقطعة . وقد استقبلت تحية الخبر بعواطف متضاربة . قالت :

— تنام فى الثانية صباحا لتستيقظ فى السابعة على الأكثر بدلا من العاشرة ، تعمل من الثامنة إلى الثانية ، ترجع فى الثالثة ، ستنام ساعتين على الأكثر ما بين الرابعة والسادسة ، لا راحة ، ولا وقت للقراءة أو الكتابة ..

فقلت :

— ما الحيلة ؟

— أبوك غنى ..

فقلت باستياء :

ـــ لا أقبل مليما ملوثا ..

ورفضت الاستمرار فى المناقشة . حقا إنها امرأة ممتازة ولكنها عملية فيما يتعلق بالحياة . وكانت فى قرارة نفسها تفضل الاستعانة بأبى على الانغماس الكلى فى العمل الذى سلبنى الوقت والفن والراحة . وقد اعتذرت من عدم الذهاب إلى مكتب فيصل يومين لأتم مسرحية . قدمتها لسرحان الهلالى ، نظر إلى باسما وتساءل :

ـــ ما زلت مصرا ؟

وفى فترة الانتظار نعمت بأحلام جميلة . أجل أصبح الفن هو الأمل الباقى للرغبة الملتهبة وللحياة الواقعية معا . وكنت شرعت فى كتابة المسرحية قبل أن تنبثق فى نفسى فكرة البيت والماخور التى لم تتبلور بعد فأتممتها وأنا فرح بأخلاقيتها المثالية غير أن سرحان الهلالى ردها إلىّ وهو يقول :

ـــ أمامك مشوار طويل ..

فسألته بلهفة :

ـــ ماذا ينقصها ؟

فقال بعجلة لا تشجع على الاسترسال :

ـــ إنها حكاية ولكن لا يوجد مسرح !

ياله من عذاب يهون إلى جانبه أى عذاب . حتى عذاب البيت

القديم . الفشل فى الفن موت للحياة نفسها . هكذا خلقنا . والفن بالنسبة لى ليس فنا فحسب ولكنه البديل عن العمل الذى يطمح إليه المثالى العاجز . ماذا فعلت لمقاومة الشر من حولى ؟ . وما العمل إذا عجزت أيضا عن الجهاد فى الميدان الوحيد المتاح وهو المسرح ؟! وتمر الأيام وأنا غارق فى العمل كالآلة . أتعامل مع الحب خطفا ، وقد انقطع ما بينى وبين حياتى الروحية جميعا فلا قراءة ولا كتابة ، وغاضت من الحياة بهجتها فلم يبق منها إلا البثور فى أديم الأرض ، ومياه المجارى الراكدة ، والمواصلات البهيمية .

فى أويقات الراحة على كثب من تحية تتمثل لى الحياة جدولا غائضا من السخرة والجفاف . نتبادل كلمات رقيقة فى مناخ كئيب تلطفه أحلام اليقظة . الدبيب النابض فى بطنها يعزف على أوتار النجاح المرتقب . أحلم أيضا بالنجاح ولكن تشتعل أحلامى أحيانا بغضب متوحش . أحلم بنار تلتهم البيت القديم ومن يفسقون فيه . هكذا يتجسد غضبى على العار والشر . لكنه لا يمر دون خجل ومحاسبة للنفس . حقا لا توجد فى قلبى ذرة حب لأبى ولكنى أقف مع أمى موقف المشفق المتردد . وأعرب عن آلامى من تلك الناحية فتقول لى تحية :

— نادى قمار سرى جريمة فى نظر القانون ولكن الغلاء جريمة أيضا ..

فأسألها :

— هل تقبلين أن يقع ذلك فى بيتك ؟

— لا سمح الله ، ولكنى أود أن أقول إن من الناس من يجدون أنفسهم فى محنة فيتصرفون كالغريق الذى لا يتورع عن فعل فى سبيل النجاة ..

وقلت لنفسى إننى أتصرف كذلك الغريق ، وإن لم أرتكب جريمة فى حق القانون ، لقد ملأت وقتى بالعمل التافه فى سبيل اللقمة حتى جف عود الحياة الأخضر ، أليس ذلك جريمة أيضا . ؟

وتمر الأيام ويشتد العذاب فتتحرر الأحلام السرية بقوة شيطانية . وأنا جالس إلى الآلة الكاتبة أشعر بحنين جارف إلى الحريـة .. إلى الإنسانية المفقودة .. إلى الفن الضائع . كيف يحطم الأسير أغلاله ؟ . أتخيل دنيا مباركة ، بلا إثم ، بلا أسر ، بلا التزامات اجتماعية ، دنيا تنبض بالخلق والإبداع والفكر وحدها . دنيا تحظى بالوحدة المقدسة فلا أب ولا أم ولا زوجة ولا ذرية . دنيا يمضى فيها الإنسان خفيفا ، غائصا فى الفن وحده . آه .. أى أحلام ؟ . أى شيطان يكمن فى القلب الذى نذر نفسه للخير ؟ . فليتجل الندم فى صورة ملاك باك . ولأنز خجلا أمام المرأة النفاثة للحب والصبر. ليحفظ الله زوجتى وليتب على والدى . وتسألنى :

— فيم تفكر ؟ .. إنك لا تكاد تسمعنى ..

فألمس راحتها بلطف وأجيب :

ــ أفكر فى القادم الجديد وما نعده له .

* * *

وأنا أهم بالجلوس أمام طاولة عم أحمد برجل ذات يوم قرأت فى وجهه عبوسا ينذر بالسوء :

ــ خير يا عم أحمد ؟

ــ يبدو أنك لم تعلم بعد ؟

ــ إنى قادم لتوى ، ماذا هناك ؟

فقال بحزن بالغ :

ــ أمس ، عند الفجر ، كبست الشرطة البيت ..

ــ أبى ؟

أحنى رأسه .

ــ وماذا حدث ؟

ــ ما يحدث فى هذه الأحوال ، أفرج عن اللاعبين وألقى القبض على والديك ..

انهرت تماما وغصت فى هم خانق . نسيت عواطفى القديمة ، نسيت غضبى الثابت ، وعز على جدا ذلك المصير المؤسف لأمى وأبى . عز علىّ لدرجة البكاء . وسرعان ما استدعانى سرحان الهلالى وقال لى :

ــ سأوكل عنهما محاميا ممتازا .. لقد صودرت النقود .. عثر على كمية غير صغيرة من المخدرات .. يوجد أمل ..

قلت بصوت ذليل :

ــ أريد أن أقابلهما فورا ..

ــ سيحصل دون شك ولكن لا مفر من أداء وأجبك الليلة .. هذه هى طبيعة المسرح .. الموت نفسه .. أعنى موت أى شخص عزيز لا يمنع الممثل من أداء دوره ولو كان هزليا ..

غادرت حجرته مغلوبا على أمرى . وتذكرت أحلامى المرعبة فتضاعف ألمى ..

* * *

قبيل المحاكمة ولد طاهر ، ولد فى جو كئيب مكلل بالحزن والعار . حتى تحية كانت تدارى فرحتها أمامى . ودخل جداه السجن وهو فى شهره الأول . وكان عليلا يثير القلق ولكنى هربت إلى العمل المتواصل أغرق فيه همى وشعوزى بالذنب . وقدر لى أن يعترض سبيلى ما ينسينى أحزانى الراهنة دفعة واحدة إذ توعكت صحة تحية . وشخصنا المرض باجتهادنا الشخصى باعتباره أنفلونزا وكان طاهر فى شهره السادس . ولما مر أسبوع دون تحسن أحضرت طبيب الحى . وقد قال لى ونحن على انفراد :

ــ يلزمنا تحليل فإنى أشك فى تيفود ..

وعلى سبيل الاحتياط وصف لنا الدواء ، وسألنى :

ــ أليس الأفضل أن تنقل إلى مستشفى الحميات ؟

فرفضت الفكرة عاقدا العزم على السهر عليها بنفسى . اضطررت لذلك الانقطاع عن مكتب فيصل . وتعويضا عما فقدت ولمواجهة المصروفات الجديدة بعت الفريجدير . جعلت من نفسى ممرضا لتحية ومرضعا لطاهر باللبن المحفوظ . تفرغت للخدمة بكل إخــلاص . عزلت طاهر فى الحجرة الأخرى . مضت صحتها تتحسن بخلاف الطفل . بذلت جهدى مدفوعا بالحب والامتنان نحو المرأة التى لم ألق منها إلا ما هو عذب وخير . وفى نهاية ثلاثة أسابيع وجدت تحية القوة فغادرت الفراش لتجلس على مقعد مريح فى مجرى الشمس . وكانت قد فقدت رواءها وحيويتها ولكنها دأبت على السؤال عن الطفل . وجدت نسمة من راحة ، رغم تعاسة طاهر . لا يلقى أى عناية طيلة مدة عملى فى المسرح ما بين الثامنة مساء حتى الثانية صباحا . أملت أن تنهض تحية لحمل العبء عنى ولكن حالتها ساءت فجأة حتى استدعيت الطبيب . وقال الرجل :

ــ ما كان يجب أن تغادر الفراش .. إنها نكسة .. تحدث كثيرا بلا عواقب سيئة ..

رجعت إلى التمريض بحزن مضاعف وتصميم مضاعف . وعلمت أم هانى بحالى فتطوعت للبقاء مع تحية مدة غيابى . وتردد الطبيب علينا أكثر من مرة غير أن قلبى انقبض واستشعر هما قادما .

تساءلت هل تخلو دنياى من تحية ؟ .. هل تحتمل دنياى بلا تحية ؟ .

تمزقت بينها وبين الطفل المتدهور . قلقت جدا من تسرب النقود من يدى فماذا هناك لأبيعه أيضا ؟ . وجعلت أطيل النظر إلى وجهها الشاحب الذابل وكأنما أودعه . وأتذكر عشرتها الجميلة فتظلم الدنيا فى عينى .

وتلقيت النذير الأخير وأنا واقف خارج المسكن . كنت عائدا من المسرح . ضغطت على الجرس . سبق إلىّ صوت أم هانى وهى تجهش فى البكاء . لقد أغمضت عينى متلقيا القضاء ، فاتحا صدرى بأريحية الكرماء للحزن البهيم .

* * *

عقب أسبوع من وفاة تحية لحق بها طاهر . كان ذلك متوقعا والطبيب تنبأ به ولم يخفه على . لم تجد الأبوة فرصة طيبة لترسخ فى قلبى . وكان بقاؤه المعذب مصدر ألم دائم لى . لم أذكر من تلك الأيام إلا بكاء طارق رمضان . لقد تماسكت أمام الناس بعد أن نفدت دموعى فى وحدتى وإذا بصوت طارق ينفجر فى ضجة لفتت إليه أنظار زملائنا فى المسرح . تساءلت عن معنى ذلك ؟ . أكان يحبها ذلك الحيوان الذى نقل تقاليد عشقه المحفوظة إلى بيت أم هانى ؟ .. تساءلت عن معنى بكائه لا كأرمل فحسب ولكن كمؤلف درامى أيضا ، إذ أن غيبوبة الحزن لم تنسنى تطلعاتى الكامنة .. !

* * *

ها هي الوحدة . بيت خال ولكنه مكتظ بالذكريات والأشباح . قلب مترع بالحزن والإثم . طالعنى الواقع بوجه صخرى يناجينى بصوت خفى أن قد تحقق كل ما حلمت به . أريد أن أنسى الحلم ولو بمضاعفة الحزن . غير أن الحزن عندما يغوص حتى يرتطم بالقاع ترتد منه إشعاعات غريبة ثملة براحة خفيفة . آه .. لعل طارق ضحك ضحكة عميقة خفية واجهت المعزين بإجهاشة الدمع . ها هى الوحدة . ومعها الحزن والصبر والتحدى . أمامى تجربة للتقشف والكبرياء . والانغماس فى الفن حتى الموت . شرعت فى التخطيط لمسرحية « البيت القديم — الماخور » حضرتنى فجأة ذكرى تحية قوية يانعة بثقل الكائنات الحية . عند ذاك انبثقت فكرة جديدة . ليكن البيت القديم هو المكان ، ليكن الماخور هو المصير ، ليكن الناس هم الناس ، ولكن الجوهر سيكون الحلم لا الواقع . أيهما الأقوى ؟ . هو الحلم بلا شك . الواقع أن الشرطة كبست البيت ، والمرض قتل تحية وابنها ، ولكن ثمة قاتلا آخر هو الحلم . الحلم الذى أبلغ الشرطة ، هو الذى قتل تحية ، هو الذى قتل الطفل . البطل الحقيقى للمسرحية هو الحلم . هو الذى توفرت له الشروط الدرامية . بذلك أعترف وبذلك أكفر . بذلك أكتب مسرحية حقيقية لأول مرة ، أتحدى سرحان الهلالى أن يرفضها . سيعتقد هو وغيره أننى أعترف بالواقع السطحى لا الحلم الجوهرى ولكن كل شيء يهون فى سبيل الفن ، فى سبيل التطهير . فى

سبيل الصراع الواجب على شخص ولد ونشأ فى الإثم وصمم بقوة على الثورة .

وانفعلت بحمى الخلق .

* * *

ها أنا أذهب إلى سرحان الهلالى فى الميعاد المضروب . مضى الشهر الذي حدده لقراءة المسرحية . قلبى يخفق بشدة . الرفض هذه المرة خطير وقد يجرف الصبر . لكننى تلقيت من عينيه بسمة غامضة هزت فؤادى المثقل بالحزن . جلست تلبية لإشارته مستزيدا من التفاؤل . جاءنى صوته الجهورى قائلا :

ـــ أخيرا خلقت مسرحية حقيقية ..

وحدجنى بنظرة متسائلة كأنما يقول « من أين لك هذا ؟» فتبخرت فى تلك اللحظة ـــ ولو إلى حين ـــ همومى جميعا وشعرت بحرارة التورد فى وجهى . قال :

ـــ رائعة ، مرعبة ، ناجحة ، لماذا سميتها « أفراح القبة » ؟

فأجبته بحيرة :

ـــ لا أدرى !

فقال ضاحكا فى تعال :

ـــ مكر المؤلفين لا يجوز على ، لعلك تشير إلى الأفراح التى تبارك الصراع الأخلاقى رغم انتشار الحشرات ، أو لعله من أسماء الأضواء كما

نسمى الجارية السوداء صباح أو نور !

ابتسمت قانعا بسكرة الرضى ، فقال :

ــ سأعطيك ثلاثمائة جنيه . ربما كان الكرم فضيلتى الوحيدة ، وهو أكبر مكافأة لأول مسرحية ..

ليت العمر امتد بك حتى تشاركينى فرحتى . وتفكر قليلا ثم تساءل :

ــ لعلك تتوقع أسئلة محرجة ؟

ــ إنها مسرحية ولا يجوز إلقاءنظرة خارج نطاقها ..

ــ جواب حسن ، أنا لا يهمنى إلا المسرحية .. ولكنها ستثير عاصفة من سوء الظن بين معارفنا ..

فقلت بهدوء :

ــ لا يهمنى ذلك .

ــ برافو .. ماذا عندك أيضا ؟

ــ أرجو أن أشرع فى كتابة مسرحية جديدة .

ــ براڤو .. حل موسم الأمطار .. وإنى فى انتظارك .. سأفاجىء بها الفرقة فى الخريف القادم ..

* * *

فى سكنى الصغير تغشانى الكآبة كثيرا . تمنيت أن أجد سكنا آخر ولكن أين ؟ . بدلت الحجرتين كلا مكان الأخرى ، بعت الفراش

واشتريت آخر جديدا . تغلغلت تحية فى حياتى أكثر مما تصورت . لم يبدأ حزنى شديدا ثم يخف ولكنه بدأ خفيفا نسبيا ـــ ربما بسبب الذهول ـــ ومضى يشتد حتى وضعت أملى فى النسيان بيد الزمن . سيتصور كثيرون أننى قتلتها ولكنها تعرف الآن الحقيقة كلها . وقبيل الخريف غادر والداى السجن . واحتراما للواجب الذى أرفعه فوق العواطف استقبلتهما بالبر والرحمة . رأيتهما شبه محطمين فازددت حزنا . اقترحت على سرحان الهلالى قبول عودتهما إلى عملهما السابق فى المسرح فأوفر لهما العمل وأعفى نفسى منه لأتفرغ للفن فوافق الرجل ولكنهما رفضا ذلك بشدة دلت على نفورهما من المسرح وأهله . باستثناء عم أحمد برجل وأم هانى لم يكلف أحد نفسه بزيارتهما . ارتحت أنا لذلك لأنه جاء مطابقا لما سجلته في المسرحية . ظل أبى غريبا رغم توبته الإجبارية عن الأفيون ، لا رابطة فى الواقع بيننا ، والحق أننى لم أفهمه ، ولا أدعى فهما له أطمئن إليه . وقد شاءت المسرحية أن أصوره كضحية للفقر والمخدر ، ترى ماذا يقول عن دوره ؟ ، هل أستطيع أن أواجهه بعد العرض ؟! . أما أمى فما زالت متعلقة بى ، وتود أن تشاركنى حياتى ولكننى أود أن أظل خفيفا وأحلم بأن أعثر على مسكن جديد ولو حجرة واحدة . إن لم أشعر نحوها بحب فإننى لا أضمر لها كرها . وسوف تذهل حين ترى دورها على المسرح فتعرف أننى عرفت جميع ما حاولت إخفاءه عنى ، هل أستطيع بعد ذلك أن ألاقيها فى

نظرة ؟ . كلا . سأتركهما ولكن فى أمان . فكرة المقلى فكرة طيبة وصاحب الفضل فيها هو أحمد برجل . أملى أن يجدوا حياتهما وأن تدركهما توبة صادقة .

* * *

وجدتنى وجها لوجه مع طارق رمضان . فى المسرح كنا نتبادل التحيات الضرورية العابرة ولكنه هذه المرة يقتحم علىّ خلوتى بوقاحته المعهودة . إنه من القلة التى لا تعرف الارتباك ولا الحرج . طالما عاتبت أم هانى على معاشرتها له . قال كاذبا بغير ما شك :

ــ جئت لأهنئك على المسرحية ..

بل جئت للاستجواب الحقير ولكننى جاريته فشكرته . وبمكر أطلعنى على رأى المخرج قائلا :

ــ إن البطل قذر جدا وبغيض جدا ولن يتعاطف الجمهور معه ..

تجاهلت الحكم تماما . ليس البطل كذلك لا فى الواقع ولا فى المسرحية ولكنه يهاجمنى بلا زيادة ولا نقصان . جعلت أنظر إليه باستهانة حتى تساءل :

ــ ألم تقدر أن حوادث المسرحية ستلاحقك بأسوأ الظنون ؟

فأجبته ببرود :

ــ لا يهمنى ذلك .

فإذا به يقول بانفعال واضح :

ـــ يا لك من قاتل محترف !

فقلت باستهانة :

ـــ ها أنت تعود إلى الماضى ، وهو بالنسبة إلىّ تجربة حب أما بالنسبة لك فما هو إلا محنة حقد .

ـــ أتستطيع أن تدافع عن نفسك ؟

ـــ لست متهما ..

ـــ ستجد نفسك فى النيابة قريبا .

ـــ إنك أحمق وحقير ..

فقام وهو يقول ساخرا :

ـــ إنها على أى حال تستحق القتل .

ثم مضى قائلا :

ـــ ولكنك تستحق الشنق أيضا ..

رمتنى الزيارة البغيضة فى دوامة . أقنعتنى بوجوب الاختفاء عن أعين الأغبياء . ولكن هل أستحق الشنق حقا ؟ . كلا .. حتى لو حوسبت على النوايا الخفية . ما كانت أحلامى إلا رمزا للتخلص من متاعب راهنة لا من الحب أو المحبوب . وهى تثار بانفعال اللحظة العابرة لا بالعاطفة المستقرة . وعلى أى حال لم يعد لى بقاء فى مجال الشياطين .

* * *

دلنى سمسار على حجرة فى بنسيون الكوت دازور بحلوان . وجدتنى

فى وحدة جديدة أنا والكتب والخيال . لزمت الحجرة أكثر الوقت وخصصت الليل وقتا لرياضة المشى . استقلت من عملى و لم يبق لى إلا الفن وحده . قلت لنفسى إن علىّ أن أركز على فكرة من بين عشرات الفكر السابحة فى خيالى . عند الاختبار تبين لى أننى لا أملك فكرة واحدة . ما هذا ؟ . إنى لا أعيش فى وحدة ولكن فى فراغ . وعاودتنى أحزانى على تحية بصورة قاهرة ونافذة وعميقة ، حتى صورة طاهر تجسدت لى فى هزالها وبراءتها وهى تصارع المجهول . وكنت أهرب من كآبتى إلى الفن فلا ألقى إلا الفراغ ، والخمود أيضا . أجل لقد انطفأت الشعلة تماما وانسحقت الرغبة فى الخلق ، وحل محلها فتور أبدى وتقزز من الوجود .

فى تلك الأثناء قرأت الكثير عن نجاح المسرحية المذهل ، واطلعت على عشرات التحيات الموجهة لموهبة المؤلف ، وتنبؤات عما سيجود به للمسرح . سخريات تتتابع معذبة لى وأنا أتقلب فى جحيم القحط . أتقلب فى جحيم القحط والأحزان ونقودى تتناقص يوما بعد يوم . قلت أخاطب الكآبة المحدقة بى :

— ما توقعت ذلك قط .

أين موسم المطر الذى تغنى به سرحان الهلالى ؟ . لا توجد أفكار ، إذا وجدت فكرة تمخضت عن لا شىء ، إذا تطلبت فكرة تأملا كتم أنفاسها الجفاف والخمود . إنه الموت . الموت كما يتبدى لحى . إنى أرى

الموت وألمسه وأشمه وأعاشره .

وعندما نفدت النقود ذهبت للقاء سرحان الهلالى فى بيته . لم يضن على بمائة جنيه خارج العقد . انخرطت فى سباق مميت ولكن الجفاف استفحل حتى صرت جسدا بلا روح . وتسلل إلى صوت الفناء الساخر ينذرنى بأننى قد انتهيت . لقد عبث بى ما شاء له العبث ثم غادرنى مكشرا عن أنياب القسوة والإعدام . ونفدت النقود مرة أخرى فهرعت إلى سرحان الهلالى ولكنه لاقانى بحزم مؤدب معربا عن استعداده لمنحى هبة جديدة تحت شرط أن أطلعه على أى جزء من المسرحية الجديدة . عدت هذه المرة إلى الوحدة والحزن والجفاف بالإضافة إلى الإفلاس أيضا . خطر لى أن ألجأ إلى باب الشعرية ولكن سدا اعترض الخاطر موكدا لى أننى يتيم وبلا بيت أو حى . عند ذاك قلت لنفسى :

— لم تبق إلا النهاية التى رسمتها للبطل !

اهتديت أخيرا إلى مخرج . رمقت الأعباء والهموم بشماتة وازدراء. حررت رسالة المنتحر محتفظا بالسر لنفسى . مضيت إلى الحديقة اليابانية قبيل العصر . لم أنتبه إلى ما حولى ، لم أر إلا خواطرى المتلاطمة فى حمرتها القانية . جلست على أريكة . بأى وسيلة وفى أى وقت ؟ . ثقل رأسى فى مهب الهواء الجاف ولم أكن نمت الليلة الماضية إلا ساعة واحدة . ثقل رأسى وغلبنى الإرهاق وخفت النور بسرعة مذهلة . لما

فتحت عينى تبددت العتمة فى هبوطها الوئيد . لعلى نمت ساعة أو أكثر . قمت فى خفة غير متوقعة . وجدتنى فى حال جديدة من النشاط . تخلص رأسى من الحرارة وقلبى من الثقل . ما أعجب ذلك . انقشعت الكآبة وتلاشى التشاؤم . إنى الآن إنسان آخر . متى ولد ؟ . كيف ولد ؟ . لماذا ولد ؟ . تساءلت أيضا عما حدث فى إغفاءة ساعة . لم تكن ساعة فقط على وجه اليقين . لقد نمت عصرا كاملا واستيقظت فى عصر جديد . لا شك قد حدثت فى أثناء النوم أمور ذات شأن . ولولا فرحة الشفاء المباغت لاحتفظ الوعى منها بقبس . ألهتنى الفرحة عن التشبث بالذكريات فتلاشت أشياء لا تقدر بثمن . لكننى قمت برحلة طويلة وناجحة ، وإلا فمن أين وكيف جاء البعث ؟ . وهو بعث غير معقول ولا مبرر ولكنه حقيقة محسوسة ماثلة يمكن أن ترى ويمكن أن تلمس . بالرغم من الفراغ والإفلاس . بالرغم من عناد الأشياء وتحدياتها . بالرغم من الخسران والأحزان . وإذن فلأستمسك بالنشوة كتعويذة سحر . ولتكن قوتها فى سرها الغامض . ها هى الحيوية تدب ناشرة شذاها الظافر . وفى الحال مضيت نحو المحطة وهى هدف غير قريب . ومع تتابع الخطوات تدفقت الحيوية خلابة واعدة . كما تبشر السحابة الثرية بالمطر . ما هو إلا وعد وشعور وطرب . عدا ذلك فإننى مفلس ومطارد وذو حزن . وعندما تراميت بعيدا تذكرت الرسالة

ولكن أدركت أيضا أن قد فات أوان استردادها . قلت لنفسي لا يهم ، وما يهم فى هذه اللحظة إلا الإمعان فى السير . ليكن من شأنها ما يكون . ولتكن العاقبة ما تكون . ذروة النشوة تتألق على جسد عراه الإفلاس والجفاف ولكن تنطلق إرادته بالبهجة المتحدية ..

كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ ـ أول معرفتى به ـ سنة ١٩٤٣ م ؛ ذلك أن شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار ، حضر إلىّ فى المكتبة التى أملكها ـ مكتبة مصر بالفجالة ـ وبصحبته شاب فى مثل سنّه ، فى حوالى الثلاثين من عمره ، وقدَّمه إلىّ باسمه « نجيب محفوظ »[1] ، وقال لى : إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له .

وقدَّم إلىّ نجيب محفوظ روايتَه « رادوبيس » ، وهى ليست أول رواية يكتبها ؛ فقد كتب قبلها رواية « عبث الأقدار » ، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى .

أخذت منه الرواية ، ووعدت أن أبدى فيها رأيى بعد يومين .

وقرأت رواية « رادوبيس » فذهلت ! فهى مكتوبة بلغة عربية رصينة وبليغة ، وتختلف عن كل الروايات العربية التى ظهرت حتى ذلك الوقت ؛ فحوادثها شائقة ، محبوكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة ، وتحكى قصة غرام الفرعون ، أو الملك مرنرع الثانى بالراقصة الفاتنة رادوبيس ، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة ، وإنفاقها على نزواته الخاصة فى بذخ شديد ، حتى أطلق عليه الشعب لقبَ « الملك العابث » . وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحدُ أفراد الشعب .

والشىء بالشىء يُذكَر ؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق ـ فيما بعد ـ أن

---

(١) قال لى شقيقى عبد الحميد : إن والدة نجيب محفوظ تعسرت فى ولادته تعسراً شديداً ، وأن الفرج جاء على يدَى الطبيب المعروف د . نجيب محفوظ ، وأنها أطلقت على وليدِها اسم نجيب محفوظ ، تيمناً به .

بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب فى مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العابث » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .

ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيى فى الرواية ، أبديت له استعدادى ، بل وترحيبى بطبعها ونشرها .

واعترضتنى عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذى تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية فى عنفوانها ، والورق معدوم تماماً من السوق .

ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطانى ، وطبعت عليه الرواية ــ ٥٠٠ نسخة فقط ــ بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذى كان يخشى أن يعرضنى للخسارة ، بألا تستوعب السوق عدداً أكبر .

وأخيراً وضعَت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصصَ همس الجنون ، كفاح طيبة ، خان الخليلى ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ؛ طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

* * *

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦ م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق ــ أكثر من ألف فرخ فولسكاب ــ وطلب منى أن أطبعها وأنشرها له فى كتاب واحد .

وكانت هذه الأوراق تحتوى على ثلاثية نجيب محفوظ .

وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقرها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثا مطوَّلًا فى جريدة الأهرام ، بشَّر فيه بمولد روائى كبير فى الأدب العربى ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .

وكان رأيى أنَّ طبع الرواية فى كتاب واحد ، يحدّ من بيعها على نطاق واسع ،

واقترحت أن تُطبع فى ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيى .

وفعلًا ظهرت الثلاثية فى ثلاثة كتب هى : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكريَّة .

وبظهور هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائى فى مصر ، بل فى العالم العربى كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ فى أن شخصيات قصصه ورواياته هى من واقع الحياة فى الأحياء الشعبية بخاصة ، التى عاش طفولته يرتع بين ربوعها ، وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمع إليهم ، وفى نفس الوقت يغوص فى أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع فى نفسه من كل ذلك فى كتاباته .

وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغى بإمعان إلى كل من يحادثه ، ويهتم بكل ما يُروَى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولًا طريفاً ، أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك فى ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك فى كتاباته ، حيث يظهر فى المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ ــ مدَّ الله فى عمره ــ يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية فى الآداب هو اعتراف بقيمة الأدب العربى بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن موعده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	الحادية عشرة	١٩٨٥
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	الحادية عشرة	١٩٨٥
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثالثة عشرة	١٩٨٧
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	الحادية عشرة	١٩٨٥
السراب	رواية	١٩٤٨	الثالثة عشرة	١٩٨٧
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الخامسة عشرة	١٩٨٧
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثالثة عشرة	١٩٨٦
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الرابعه عشرة	١٩٨٧
السكرية	رواية	١٩٥٧	الثالثة عشرة	١٩٨٧
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	التاسعة	١٩٨٥
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	السادسة	١٩٨٧
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيئ السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	الثامنة	١٩٨٥
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السابعة	١٩٨٧
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الأسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		
تحت الطبع				
قشتمر	رواية			
الفجر الكاذب	مجموعة			

رقم الإيداع ٥٢٦٠
الترقيم الدولى ١ ــ ٤٦٩ ــ ٣١٦ ــ ١٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

الثمن ٣٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه